(سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصر ٣٠)

إحسان الظّن بالصّحابة

عقيدةٌ ودِينٌ

قراءة في كتاب "العَواصِم من القَواصِم" للقاضي أبي بكر بن العربيّ

أشهر كتاب في الذَّب عن الصحابة ودَحْض افتراءات أعدائهم

قراءة وتعليق

محمد علي أبو زهرة

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

(البقرة ١٣٤)

(خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)

رواه البخاري

تمهيد

إحسانُ الظَّن بالناسِ عامَّةً خُلُقٌ إسلاميٌّ أصيل، ومِن باب أَوْلَى الصحابةُ رضوانُ الله عليهم، كيف لا وهُمْ خَيرُ القُرون في جميع الأمم؛ وهم الواسطةُ بين رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - وبين أمَّته، ومنهم تَلقَّت الأمةُ عنه القرآنَ والشريعة، وعلى أيديهم كانت الفتوحاتُ الواسعةُ العظيمة، وقد نَشَروا الفضائل بين هذه الأمة؛ مِن الصِّدْق والنُّصْح والأخلاق والآداب، التي لا توجد عند غيرهم، وفيهم قال - تعالى - مُثنيًا عليهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

لذا وجَبَ الأدبُ معهم وإحسانُ الظن بهم، وحملُ أفعالهم على أحسن المخارج، فهذا أبو أيوبَ الأنصاريُّ قالتْ له امْرأتُه أمُّ أيوبَ: يا أبا أيوبَ،

ألا تسمعُ ما يقول النَّاسُ في عائشةَ؟ قال: بلى، وذلك الكذبُ، أكنتِ أنتِ يا أمَّ أيوبَ فاعلةً ذلك؟ قالت: لا والله ما كنتُ لأفعَلَهُ[1].

ومذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعة إحسانُ الظَّن بجميع الصحابة - رضي الله عنهم وأرضاهم - والإمساكُ عمَّا شَجَرَ بينهم، وتأويلُ قتالهم أنهم مجتهدون متأوِّلون لم يَقصدوا مَعصيةً ولا مَحْضَ الدُّنيا، بل اعتقد كلُّ فريق أنه المُحِقُّ، فإنَّ ما وقعَ في عهد الصحابة مِن القتال كان باجتهادٍ منهم، والواجبُ علينا أن نَكفَّ عما شَجَرَ بينهم، وأن نعقِدَ قلوبَنا على محبَّتهم، ونُطلقَ ألسنتَنا بالثَّناء عليهم وعدمِ تنقُّص أحدٍ منهم، مع القطْعِ بأنهم كانوا غيرَ مَعصومين، ولكنْ ما يقعُ منهم مِن الخطأ هو باجتهادٍ مغفورٍ ـ إن شاء الله ـ قال ابنُ أبي زيدٍ القَيرواني ـ رحمه الله ـ في الرِّسالة في كلامه على العقيدة: وأنَّه لا يُذكَرُ أحدٌ مِن صحابةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم إلا بأحسنِ ذِكرٍ والإمساكِ عمَّا شَجَرَ بينهم، وأنهم أحقُّ الناس أن يُتَلَمَّسَ لهم أحسنُ المَخارج ويُظَنُّ بهم أحسنُ المذاهب. اهـ.

---

[1] – يعني في حادثة "الإفك" الظالمة.

وقال الإمامُ النَّوويُّ رحمه اللهُ تعالى: اعلَمْ أن الدِّماءَ التي جَرَتْ بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ليست بداخلةٍ في هذا الوعيد ـ يعني قولَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: إذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بسَيْفَيْهِما فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ في النَّارِ ـ ومذهبُ أهلِ السُّنَّة والحقِّ إحسانُ الظنِّ بهم، والإمساكُ عمَّا شَجَرَ بينهم، وتأويلُ قتالهم، وأنهم مجتهدون متأوِّلون لم يَقصدوا معصيةً، ولا محضَ الدنيا، بل اعتقد كُلُّ فريق أنه المُحِق، ومخالفَه يأثَمُ؛ فوَجَبَ عليه قتالُه ليرجِعَ إلى الله، وكان بعضُهم مُصيباً وبعضُهم مخطئاً مَعذوراً في الخطأ، لأنه اجتهادٌ، والمجتهدُ إذا أخطَأَ لا إثمَ عليه. ا.هـ.

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية في "الواسطيَّة": ومِن أصولِ أهل السُّنة والجماعة: سلامةُ قلوبِهم وألسنتِهم لأصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم... ويحبون أهلَ بيت رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ويتولَّونَهم ويحفظون فيهم وصيةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم... ويتبرَّؤون مِن طريقةِ الروافضِ الذين يُبغِضون الصحابةَ ويَسُبُّونَهم، ومِن طريقةِ النَّواصبِ الذين يُؤذون أهلَ البيتِ بقولٍ أو عمل، ويُمسكون عمَّا شَجَرَ بين الصحابة، ويقولون: إنَّ هذه الآثارَ المَرويَّةَ في مَساويهم منها ما هو كذبٌ، ومنها ما قد زِيدَ فيه ونُقِصَ وغُيِّرَ عن وجهِه، والصحيحُ منه هم

فيه مَعذورون، إمَّا مُجتهدون مُصيبون، وإما مُجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يَعتقدون أن كلَّ واحدٍ مِن الصَّحابة مَعصومٌ عن كبائرِ الإثْم وصَغائره، بل تجوزُ عليهم الذُّنوبُ في الجُملة، ولهم مِن السَّوابق والفَضائل ما يُوجبُ مغفرةَ ما يَصدُرُ منهم إن صَدَرَ حتى إنه يُغفَر لهم مِن السَّيئات ما لا يُغفَر لمن بَعدَهم، لأنَّ لهم مِن الحَسَنات التي تَمحو السَّيئات ما ليس لمن بَعدَهم، وقد ثَبَتَ بقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهم خيرُ القرون، وأن الْمُدَّ مِن أحدِهم إذا تَصَدَّقَ به كان أفضلَ مِن جَبلِ أُحُد ذَهبًا ممَّن بَعدَهم ـ ثم إذا كان قد صَدَرَ مِن أحدِهم ذنبٌ فيكونُ قد تاب منه، أو أَتَى بحَسناتٍ تَمحوه، أو غُفِرَ له بفَضلِ سابقَتِه، أو بشَفاعةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم الذي هم أحقُّ الناس بشَفاعتِه، أو ابتُلِيَ ببلاءٍ في الدُّنيا كُفِّرَ به عنه، فإذا كان هذا في الذُّنوب المحَقَّقة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مُجتهدين: إنْ أصابوا فلهمْ أجرانِ، وإنْ أخطَئوا فلهمْ أجرٌ واحد، والخطأُ مغفورٌ لهم؟ ثم القَدْرُ الذي يُنْكَرُ مِن فِعل بعضِهم قليلٌ نَزرٌ مَغمورٌ في جَنبِ فضائلِ القومِ ومحاسنِهم مِن الإيمانِ بالله ورسولِه، والجهادِ في سبيلِه، والهِجرةِ والنُّصرةِ والعِلمِ النافعِ والعملِ الصالح. انتهى باختصار.

وقال الإمامُ القُرطبيُّ رحمَهُ اللهُ تعالى: لا يجوزُ أنْ يُنسَبَ إلى أحدٍ من الصحابة خطأٌ مقطوعٌ به، إذ كانوا كلُّهم اجتهدوا فيما فَعلوه، وأرادوا اللهَ عزَّ وجلَّ، وهم كلُّهم لنا أئمة، وقد تُعُبِّدْنا بالكَفِّ عمَّا شَجَرَ بينهم، وألَّا نَذكَرَهم إلا بأحْسَنِ الذِّكر؛ لحُرْمةِ الصُّحْبة، ولِنَهْيِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن سَبِّهم[1]، وأنَّ اللهَ غَفَرَ لهم، وأخبَرَ بالرِّضا عنهم. انتهى.

وانظُرْ حُكْمَ الطَّعنِ في الصَّحابة والازدراءِ بهم وتَتَبُّع سَقطاتهم، وبيان أنَّ عَدالتهم محلُّ إجماعٍ في الفَتاوى؛ فإنَّ تعديلَ الصحابة رضي الله عنهم وتَنزيهَهم عن الكَذب والوَضع، هو ممَّا اتَّفَقَ عليه أئمةُ الإسلام ونُقَّادُ الحديثِ مِن أهلِ السُّنة والجَماعة، ولا يُعرَف مَن طَعَنَ فيهم وشَكَّكَ في عَدالتهم إلاَّ الشُّذَّاذُ مِن أصحابِ الأهواءِ والفِرَقِ الضَّالة المنحرفة ممن لا يُلتفَتُ إلى أقوالهم، ولا يُعتدُّ بها في خِلاف ولا وِفاق، فإنَّ أهلَ الأهواء وأمراض القُلوب في كل عَصر ومَصر لا يَنفكُّون لَمَّا عَجزوا أن يَلمزوا في رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم استَسهَلُوا أن يَلمِزوا في أصحابِه الكِرام،

[1] – روى البخاري ومسلم: (لا تَسُبُّوا أصْحابِي؛ فلوْ أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ).

وأطلَقوا ألسنتَهم فيهم؛ بتَشويههم والانتقاصِ منهم بغَرَضِ الانتقاصِ الخَفيِّ ممَّن ربَّاهم ﷺ وأخرَجَهم ليعلِّموا الدُّنيا كلَّها.

غَيرَ أنَّ هذه الهَجمةَ الشَّرسةَ على الصحابة قد زادت في زمانِنا هذا أكثرَ مِن غَيره، وزادتِ الكتاباتُ والمُسلسلاتُ والمواقعُ الإلكترونية الإلحادية التي لا يقفُ خَلفَها أفرادٌ بل حكوماتٌ تَرصُدُ لها ميزانياتٍ مفتوحةً، فراح المشكِّكون يَنبِشُون في التاريخ ويُفتِّشون عن كلِّ ساقطةٍ ولاقطة ويَنفُخُون ويُضخِّمون، واللهُ مِن ورائهم مُحيط.

وكنتُ قد قرأتُ كتابَ (العَواصِم مِن القَواصِم) للقاضي أبي بكْرِ بنِ العَربي[١] وأَفَدْتُ منه كثيراً في التأدُّبِ مع الصحابة وإحسانِ الظَّنِّ بهم

---

[١] – هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، المشهور بالقاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي الحافظ عالم أهل الأندلس ومُسنِدُهم مِن حفّاظ الحديث، وهو غير محيي الدين بن عربي الصوفي. ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨ هـ، تأدّب ببلده وقرأ القراءات وسمع به من أبي عبد الله بن منظور وأبي محمد بن خزرج، ثم انتقل ورحل مع أبيه سنة ٤٨٥ هـ ودخل الشام فسمع من الفقيه نصر المقدسي وأبي الفضل بن الفرات وببغداد من أبي طلحة النعالي وطراد، وبمصر من الخلعي وتفقَّه على الغزالي وأبي بكر الشاشي والطرطوشي، كما تتلمذ على يد المازري في المهدية. له شهرة في علمِه فقد أخذ جملة من الفنون حتى أتقن الفقه والأصول وقيد الحديث واتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والكلام وتبحّر في التفسير وبرع في الأدب والشعر. صنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية، ومات في فاس في ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ، ودفن بها. قال عنه ابن بشكوال: هو الإمام الحافظ، ختام علماء الأندلس.

والذَّبِّ عنهم ودَحْض افتراءاتِ أعدائهم، ووجدتُه مِن أفضلِ مَن كَتَبَ في هذه المسألة، ورغبتُ أن أقدِّم للقارئ المعاصر قراءةً في هذا السِّفْر المفيد، مخدومةً بتعليقاتٍ وتفسيراتٍ وشُروحات في هوامش هذه القراءة.

وقد تناولَ ابنُ العربي - رضي الله عنه - في هذا الكتاب[1] مباحثَ كثيرة اكتفيتُ في هذه القراءة بالمسائل التي تخص الصحابة ويثيرها أعداؤهم للتشكيك في نزاهتهم وزعزعة ثقة الأمة فيهم للنيل من صرح الإسلام العظيم ونبيه الكريم من خلال التشكيك في تلاميذه وأصحابه.

وقد سار ابنُ العربي في هذا الجُزء مِن الكتاب على ذِكرِ الأخبار المشبوهة ثم يردُّ عليها ويفنِّدُها ويَبيِّنُ وجه الحق فيها، فكان مِن الموضوعات التي تخصُّ الصحابةَ في هذا الكتاب: سقيفة بني ساعدة – خلافة عثمان

وله من المؤلفات كثير من أشهرها: قانون التأويل – أحكام القرآن – أحكام القرآن الصغرى – أنوار الفجر – الناسخ والمنسوخ – القبس في شرح موطأ مالك بن أنس – العواصم من القواصم.

١ – يقصد ابن العربي بالقواصم (جمع قاصمة) الحوادث والشدائد التي مرت بالصحابة وكادت تقصم الظهر لولا أن الله عصمهم في كل قاصمة بعصمته، وقد سار ابن العربي في الكتاب بأن يذكر قاصمة ويتبعها بعاصمة، وهكذا.

والافتراء عليه وقتله – استخلاف عليّ – موقعة الجَمَل – خلافُ عليٍّ ومُعاوية.

وكان من عملي في هذه القراءة لكتاب العواصم من القواصم:

- اعتماد نسخة (الشاملة) عن طبعة العلامة الشيخ محب الدين الخطيب، والاقتصار منه على الجزء الخاص بالصحابة.

- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة من كتب الأحاديث.

- التعريف بالأعلام التي ورد ذكرها في الكتاب.

- إيضاحُ معاني الكلمات والألفاظ والعبارات التي تحتاج إلى بيان وشرح وتفسير، من خلال كتب اللغة والمعاجم.

- ضبط الضروريّ من ألفاظ الكتاب، تيسيرًا على القارئ المعاصر ومساعدةً له في إقامة اللغة التراثية المرويَّة في الكتاب.

- تصويب أخطاء "المطبوعة"، من خلال المصادر التي ورد فيها صوابُ هذه الأخطاء.

- خدمة الكتاب والتعليقات عليه في الهوامش. وجاءت تعليقاتي والمصادر التي استشهدتُ بها ورجعتُ إليها منثورةً في الهوامش من كل صفحة في هذا الكتاب، وكل ما في الهوامش هو من عملي في خدمة الكتاب.

وهو المنهج الذي التزمتُه وأخذتُ به نفسي فيما وفَّقني الله في إخراجه من كتب التراث، في المشروع الذي تبنَّيتُه وسمَّيتُه (سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصر) وهذا هو الكتابُ الثلاثون - بفضل الله - في هذه السلسلة.

هذا وإن كان مِن صواب فهو مِن توفيق الله وحدَه، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان الرجيم. ورحمَ اللهُ العالمَ الجليلَ القاضي أبا بكر بن العربي وجزاه عن أصحاب محمد خيرًا، ونفعنا بعلمه، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو زهرة

الكويت العامرة - رمضان ٢٠٢٥م

بداية القراءة

الصحابة بعد موت النبيّ ﷺ

قال القاضي أبو بكر بنُ العربي رضي الله عنه في "العَواصِم من القَواصِم":

بعدَ أنِ اسْتَأْثَرَ اللهُ بِنَبيِّه صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وقدْ أَكْمَلَ له ولنا دِينَه، وأتمَّ عليه وعليْنا نِعْمتَه، كما قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} وما مِنْ شيءٍ في الدُّنيا يَكْمُلُ إلا وجاءه النُّقْصانُ، لِيكونَ الكمالُ الذي يُرادُ به وجْهَ اللهِ خاصةً، وذلك العملُ والدارُ الآخرةُ، فهي دارُ اللهِ الكاملةُ. قال أَنَسٌ: ما نَفَضْنا أيدِيَنا مِنْ تُرابِ قَبْرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حتى أَنْكَرْنا قلوبَنا[1].

واضْطَرَبَتِ الحالُ، ثم تداركَ اللهُ الإسلامَ ببيْعةِ أبي بكرٍ، فكان موتُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قاصِمةَ الظَّهْرِ ومُصِيبةَ العُمَر، فأمّا عليٌّ

---

١ – رواه أحمد والترمذي وابنُ ماجه.

فاسْتَخْفى[1] في بيتِه مع فاطمةَ[2]، وأمَّا عثمانُ فسَكَتَ، وأمّا عُمَرُ فأَهْجَرَ[3] وقالَ: «ما ماتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، وإنما واعَدَه اللهَ كما واعَدَ موسى، ولَيَرْجِعَنَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فلَيَقْطَعَنَّ أيْدِيَ الناسِ وأَرْجُلَهم»[4].

وتَعلَّقَ بالُ العبَّاسِ[5] وعليٍّ بأمرِ أنفُسِهما في مَرَضِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فقال العبّاسُ لعليٍّ: «إني أَرَى الموتَ في وجوهِ بَنِي عبدِالمطَّلبِ، فتعالَ حتى نسألَ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فإنْ كان هذا الأمرُ فينا عَلِمناه»[6]. كما تَعَلَّقَ بالُ العبَّاسِ وعليٍّ بميراثِهما فيما تَرَكَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ

---

١ – ثم خرج وشهد الاجتماع في سقيفة بني ساعدة.

٢ – عاشت فاطمة بعد موت النبي ﷺ ستة أشهر معتزلة في بيتها ومعها عليّ فلما مرضت جاءها الصدّيق فدخل عليها فجعل يترضّاها فرضيت.

٣ – أهجر في كلامه: تكلم بالهَذَيان.

٤ – صحيح البخاري – فضائل الصحابة.

٥ – العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْهَاشِمِيُّ الْقُرَشِيُّ (٥٦ ق.هـ – ٣٢ هـ) صحابي من صحابة رسول الله، وهو ثاني من أسلم من أعمامه العشرة إذ لم يسلم منهم سواه وحمزة، كما أنه عديله فزوجة النبي ميمونة بنت الحارث أخت زوجته لبابة الكبرى بنت الحارث. ولد في مكة المكرمة قبل عام الفيل بثلاث سنين ٥٦ ق.هـ.

٦ – فقال له عليّ: إنا والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناسُ بعده، وإني والله لا أسألها رسولَ الله ﷺ. رواه البخاري في كتاب المغازي من صحيحه.

عليهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَدَكَ[1] وبَني النَّضيرِ وخَيْبَرَ[2]. واضْطَرَبَ أمرُ الأنْصارِ يَطْلُبون الأمرِ لأنفُسِهم، أو الشَّرِكَةَ فيه معَ المهاجِرين[3]. وانْقَطَعَتْ قلوبُ الجيشِ الذي كان قدْ بَرَزَ معَ أسامةَ بنِ زيدٍ بالجُرْفِ[4].

فتداركَ اللهُ الإسلامَ والأنامَ، وانجابَتِ الغُمَّةُ انجيابَ الغَمامِ، ونَفَذَ وعْدُ اللهِ باسْتِئْثارِ رسُولِ اللهِ وإقامةِ دينِه على التَّمامِ بأَبي بكرٍ الصديقِ رَضِيَ اللهُ عنه، وإنْ كان قدْ أصابَ ما أصابَ مِنَ الرَّزِيَّةِ الإسلامَ.

وكان أبو بكرٍ إذْ مات النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ غائباً في مالِه بالسُّنْحِ[5]، فجاء إلى منزلِ ابنتِه عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، وفيه مات النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فكَشَفَ عنْ وجْهِهِ، وأَكَبَّ عليه يُقَبِّلُه وقال: بِأَبي أنتَ وأُمِّي يا رسولَ اللهِ، طِبْتَ حَيًّا ومَيِّتًا، واللهِ لا يَجْمَعُ اللهُ عليكَ الموْتَتينِ، أمّا الموْتَةُ التي كَتَبَ اللهُ عليكَ فقدْ مِتَّها. ثم خَرَجَ إلى المسجدِ والناسُ فيه، وعُمَرُ يأتي بهَجْرٍ من القولِ كما قدَّمنا، فَرَقِيَ المنبرَ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه ثم قال:

---

١ – فدك: منطقة زراعية جنوب المدينة غنمها الرسول ﷺ من اليهود في غزوة خيبر.

٢ – ثم رضوا حين ذكّروا بقول النبي ﷺ: لا نورث، ما تركناه صدقة.

٣ – حتى قالوا: منا أمير ومنكم أمير. فما أعجبَ النفسَ البشرية.

٤ – حزن الجيش حين جاءهم نبأ موت النبي ﷺ وكانوا خرجوا لقتال الروم بقيادة أسامة.

٥ – والسُّنْحُ منازل في عوالي المدينة، بينها وبين مسجد رسول الله ﷺ ميل واحد.

أمّا بَعْدُ أيُّها الناسُ، مَنْ كان يَعْبُدُ محمداً فإنَّ محمداً قدْ ماتَ، ومَنْ كان يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَموتُ. ثم قَرَأَ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} فخَرَجَ الناسُ يَتْلونَها في سِكَكِ المدينةِ كأنها لم تَنْزِلْ إلا ذلكَ اليومَ[1].

يوم السَّقيفة

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: واجْتَمَعَتِ الأنصارُ في سَقيفة[2] بَني ساعِدَةَ يَتَشاورون ولا يَدْرونَ ما يَفْعلونَ، وبَلَغَ ذلك المهاجِرينَ فقالوا: نُرْسِلُ إليهم يأتونَنا، فقال أبو بكرٍ: بل نَمْشي إليهم. فسار إليهم المهاجِرون، منهم أبوبكرٍ وعُمَرُ وأبو عبيدةَ[3]، فتراجَعُوا الكلامَ[4]، فقال

---

١ – صحيح البخاري – فضائل الصحابة.

٢ – السقيفة بناء مسقوف بجريد النخل يلتقي فيه أبناء القبيلة لإدارة شؤونهم.

٣ – أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري القرشي (٤٠ ق هـ – ١٨هـ): صحابي وقائد مسلم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، لقَّبَهُ النّبيُّ بأمين الأمة حيث قال: «إن لكل أمّة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة: أبو عبيدة بن الجراح». وقال له أبو بكر الصديق يوم سقيفة بني ساعدة: «قد رضيتُ لكم أحدَ هذين الرَّجلين: عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح».

٤ – تبادلوه.

بعضُ الأنصارِ: منَّا أميرٌ ومنْكُم أمير[1]. فقال أبو بكرٍ كلاماً كثيراً مُصِيباً، يُكْثِرُ ويُصيبُ، منه: نحنُ الأُمَراءُ وأنتمُ الوُزَراءُ، إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قال: الأئمةُ مِنْ قُرَيشٍ، وقال: أوصِيكُم بالأنْصارِ خيراً: أنْ تَقْبَلوا مِنْ مُحْسِنِهم، وتتجاوزوا عن مُسِيئِهم[2].

انقياد الأنصار لأبي بكر

وقال أبو بكرٍ: إنَّ اللهَ سَمَّانا الصادِقين وسمَّاكم المُفْلِحِين، وقدْ أَمَرَكم أنْ تكونوا مَعَنا حيثُما كنَّا فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الأقوالِ المصيبةِ والأدلةِ القويَّةِ، فتَذَكَّرَ الأنصارُ ذلك وانقادتْ إليه، وبايَعوا أبا بكرٍ الصدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عنه[3].

---

١ – قال ذلك الحُبابُ بنُ المنذِر.

٢ – صحيح البخاري – كتاب مناقب الأنصار.

٣ – وقالوا: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء. رواه أحمد.

إنفاذُ جيش أسامة

وقال أبو بكرٍ لأسامةَ: انْفُذْ[1] لأمرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فقال عُمَرُ: كيف تُرْسِلُ هذا الجيشَ والعَرَبُ قدِ اضْطَرَبتْ[2] عليكَ؟ فقال: لو لَعِبَتِ الكِلابُ بخَلاخيلِ نساءِ المدينةِ ما رَدَدْتُ جيشاً أَنْفَذَهُ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[3].

صلابة أبي بكر مع مانعي الزكاة

وقال له عُمَرُ وغيرُه: إذا مَنَعَكَ العربُ الزكاةَ فاصبِرْ عليهم. فقال: «واللهِ لو مَنَعوني عِقالاً[4] كانوا يؤدُّونَه إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لقاتَلتُهم

---

١ – امضِ واخرُج. يعني اخرج بالجيش الذي أمر به الرسول ﷺ لقتال الروم.

٢ – تحركوا وخرجوا عليك.

٣ – عن أبي هريرة قال: "والله الذي لا إله إلا هو لولا أبو بكر استُخْلِف ما عُبِدَ الله" فقيل له: مه يا أبا هريرة. فقال: إن رسول الله وجَّه إسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام، فلما نزل بذي خشب قُبِض رسول الله وارتدَّت العرب. فاجتمع إليه أصحاب رسول الله فقالوا: يا أبا بكر، رد هؤلاء، فقد ارتدت العرب حول المدينة؟! فقال: "والذي لا إله غيره لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ولا حللت لواء عقده رسول الله". فوجه أسامةَ فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوةً ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يَلْقَوا الرومَ، فلقُوا الرومَ فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام.

٤ – الحَبْل الذي تُعقل به الدابة.

عليه. والله لأقاتِلنَّ مَنْ فرَّق بين الزكاةِ والصلاةِ». قيلَ: ومَعَ مَنْ تُقاتِلُهم؟ قال: «وَحْدي، حتى تَنْفرِدَ سالفَتي[1]».

وقَدَّمَ أبو بكرٍ الأمراءَ على الأجنادِ والعمَّالَ في البلادِ مختاراً لهم، مُرتَئياً[2] فيهم، فكان ذلكَ مِنْ أَسَدِّ عملِه، وأفضلِ ما قدَّمَه للإسلامِ[3].

ميراثُ النبي

وقال أبو بكرٍ لفاطمةَ وعليٍّ والعباسِ[4]: إنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قال: «لا نُوْرَثُ، ما تَرَكناه صَدَقَةٌ». فتذَكَّرَ الصحابةُ ذلك.

---

١ – السالفة: جانب العُنُق، وهما سالفتان من جانبيه، ولا تنفرد إحداهما عن الأخرى إلا بالموت.

٢ – معتقِداً صوابَ رأيه فيهم.

٣ – وفي مقدمة هؤلاء القادة: أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد.

٤ – أرسلت فاطمةُ إلى أبي بكر تسأله ميراثَها من النبي فيما أفاء الله على رسوله تطلب صدقة النبي التي بالمدينة وفدَك وما بقي من خُمس خيبر، فقال أبو بكر إن رسول الله قال "لا نورث، ما تركنا فهو صدقة. إنما يأكل آلُ محمد من هذا المال – يعني مال الله – ليس لهم أن يزيدوا على المأكل" وإني والله لا أغيِّر شيئاً من صدقات النبي التي كانت عليها في عهد النبي ولأعملنَّ فيها بما عمل فيها رسول الله. فتشهد عليٌّ ثم قال: إنا عرفنا يا أبا بكر فضيلتك (وذكر قرابتَهم من رسول الله وحقَّهم) فتكلم أبو بكر فقال: والذي نفسي بيده لَقَرابة رسول الله أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي. رواه البخاري في فضائل الصحابة.

وقال[1]: سمعْتُه صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «لا يُدْفَنُ نَبِيٌّ إلا حيثُ يموتُ»[2]، وهو في ذلك كلِّه رابِطُ الجأْشِ[3] ثابتُ العِلْمِ والقَدَمِ في الدِّينِ.

استخلافُ عُمَر

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ثم اسْتَخلَفَ عُمَرَ، فظهرتْ بَرَكَةُ الإسلامِ، ونَفَذَ[4] الوعدُ الصادقُ في الخَليفَتينِ[5]. ثمَّ جَعَلَها عُمَرُ شُورَى[6]، فأَخْرَجَ عبدُ الرحمنِ بنِ عوفٍ نفسَه من الأمرِ حتى يُنْظَرَ ويُتَحَرَّى فيمن

---

١ – يعني أبوبكر.

٢ – موطَّأ مالك – كتاب الجنائز.

٣ – يعني ثابت واثق مطمئن.

٤ – تحقق.

٥ – وعد الله في سورة النور: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا).

٦ – عندما ضربه أبو لؤلؤة وأيقن أن أجله قد جاء جعل الخلافة من بعده شورى في ستة يختارون أحدهم لها. وهؤلاء الستة هم: «عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص». فلما عيَّنهم بأسمائهم قال: «لا أجد أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدي». واختيار عمر هؤلاء الستة يقف النظر. فليس بينهم واحد من أنصار المدينة ولا من غيرهم من قبائل العرب. بل هم جميعًا من المهاجرين ومن قريش. مع ذلك لم يثر اختيار عمر إياهم ثائرة الأنصار ولا ثائرة غيرهم من العرب الذين أقبلوا أفواجًا إلى المدينة بعد فريضة الحج، وظلوا بها بعد مقتل عمر حتى بايعوا خليفته عثمان رضي الله عنه.

يُقَدَّمُ، فقُدِّمَ عُثْمانُ، فكان عندَ الظنِّ به[1]: ما خالَفَ عهداً، ولا نَكَثَ عَقْداً، ولا اقْتَحَمَ مَكروهاً ولا خالَفَ سُنَّةً[2].

---

١ – المقصود عثمان.

٢ – لم يكد النَّاس يفرغون من دفن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حتَّى أسرع رهط الشُّورى وأعضاء مجلس الدَّولة الأعلى إلى الاجتماع في بيت عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها؛ ليقضوا في أعظم قضيَّةٍ عرضت في حياة المسلمين بعد وفاة عمر. وقد تكلَّم القوم، وبسطوا آراءهم، واهتدوا بتوفيق الله إلى كلمةٍ سواء، رضيها الخاصَّة، والكافَّة من المسلمين. وعندما اجتمع أهل الشُّورى قال لهم عبد الرَّحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزُّبير: جعلت أمري إلى عليٍّ. وقال طلحة: جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: جعلت أمري إلى عبد الرَّحمن بن عوف. وأصبح المرشَّحون ثلاثةً، عليَّ بن أبي طالب، وعثمانَ بن عفان، وعبدَ الرحمن بن عوف. فقال عبدُ الرحمن: أيكما تبرَّأ من هذا الأمر، فنجعله إليه، واللهُ عليه والإسلامُ لينظرنَّ أفضلهم في نفسه، فأسكت الشَّيخان. فقال عبد الرحمن بن عوف: أفتجعلونه إليَّ واللهِ عليَّ أن لا آلو عن أفضلكما؟ قالا: نعم، فبدأ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اتصالاته، ومشاوراته فور انتهاء اجتماع المرشَّحين السِّتَّة صباح يوم الأحد، واستمرَّت مشاوراته، واتِّصالاته ثلاثة أيامٍ كاملة، حتَّى فجر يوم الأربعاء الرَّابع من المحرم، وهو موعد انتهاء المهلة الّتي حدَّدها لهم عمر، وبدأ عبد الرَّحمن بعليِّ بن أبي طالبٍ، فقال له: إن لم أبايعك فأشر عليَّ، فمن ترشح للخلافة؟ قال عليٌّ : عثمان بن عفَّان، وذهب عبد الرَّحمن إلى عثمان، وقال له: إن لم أبايعك، فمن ترشِّح للخلافة؟ فقال عثمان: عليَّ بن أبي طالب. وذهب ابن عوف بعد ذلك إلى الصَّحابة الآخرين، واستشارهم، وكان يشاور كلَّ من يلقاه في المدينة من كبار الصَّحابة، وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد، ومن يأتي للمدينة، وشملت مشاوراته النِّساء في خدورهنَّ، وقد أبدَيْنَ رأيهن، كما شملت الصِّبيان، والعبيد في المدينة. وكانت نتيجة مشاورات عبد الرَّحمن بن عوف: أنَّ معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفَّان، ومنهم من كان يشير بعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، وفي منتصف ليلة الأربعاء، ذهب عبد الرحمن بن عوف: إلى بيت ابن أُخته: المسوّر بن مخرَمة، فطرق البيت، فوجد المسوّر نائماً، فضرب الباب حتَّى استيقظ، فقال: أراك نائماً، فوالله ما اكتحلتُ هذه اللَّيلة بكبير نوم، انطلقْ فادع الزُّبير، وسعداً. فدعوتهما له: فشاورهما ثمَّ دعاني، فقال: ادع لي عليّاً، فدعوته، فناجاه حتَّى ابهارَّ اللَّيل، ثمَّ قام عليٌّ من عنده، ثم قال : ادعُ لي عثمان، فدعوتُه فناجاه حتَّى فرَّق بينهما المؤذِّن بالصُّبح. وبعد صلاة صبح يوم البيعة (اليوم الأخير من شهر ذي الحجة ٢٣ هـ) وكان صهيبٌ الرُّومي الإمامَ، إذ أقبل عبد الرَّحمن بن عوف، وقد اعتمَّ بالعمامة الّتي عمَّمه بها رسول الله ﷺ؛ وكان قد اجتمع رجال الشُّورى عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين،

فضائل عثمان

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وقدْ كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ بأنَّ عُمَرَ شهيدٌ، وبأنَّ عثمانَ شهيدٌ، وبأنَّ له الجَنَّةَ على بَلْوَى تُصيبُهُ[1].

والأنصار، وأمراء الأجناد، منهم: معاوية أمير الشَّام، وعمير بن سعد أمير حمص، وعمرو بن العاص أمير مصر، وكانوا وافَوا تلك الحجَّة مع عمرَ، وصاحبوه إلى المدينة. وجاء في رواية البخاريّ: (فلمَّا صلَّى للنَّاس الصُّبح، واجتمع أولئك الرَّهط عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين، والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد، وكانوا وافَوا تلك الحجَّة مع عمر، فلمَّا اجتمعوا؛ تشهَّد عبد الرحمن، ثمَّ قال: أمَّا بعد: يا عليُّ ! إنِّي قد نظرتُ في أمر النَّاس، فلم أرهم يعدلون بعثمانَ، فلا تجعلْ على نفسك سبيلاً. فقال: أبايعُك على سنَّة الله، ورسوله، والخليفتين من بعده. فبايعه النَّاس: المهاجرون، والأنصار، وأمراء الأجناد، والمسلمون. وجاء في رواية صاحب التَّمهيد، والبيان: أنَّ عليَّ بن أبي طالب أوَّل من بايع بعدَ عبد الرَّحمن بن عوف.

١ – قال أبو موسى الأشعري: إن النبي دخل حائطاً (أي بستاناً) وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن، فقال "ائذن له وبشره بالجنة" فإذا أبو بكر. ثم جاء آخر يستأذن، فقال: "ائذن له وبشره بالجنة" فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هنيهة ثم قال: "ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه" فإذا عثمان بن عفان. صحيح البخاري – كتاب فضائل الصحابة.

وهو - عثمانُ - وزوجُه رُقَيَّةُ ابنةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ مُهاجِرٍ[1] بعد إبراهيمَ الخليلِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، دخل به في بابِ (أَوَّلُ مَنْ ...) وهو عِلْمٌ كبيرٌ جَمَعَهُ الناسُ[2].

ولما صَحَّتْ إمامتُه قُتِلَ مَظْلوماً، ولِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً. ما نَصَبَ حَرْباً ولا جَيَّشَ عَسْكراً ولا سَعَى إلى فتنة[3]، ولا دعا إلى بَيْعَةٍ[4]، ولا حارَبَه ولا نازَعَه مَنْ هو مِن أَضْرابِه ولا أَشْكالِه، ولا كان يَرْجوها لنفسه[5]، ولا خِلافَ أنه ليس لأحدٍ[6] مِنَ المسلمين أنْ يُفعَل فيه ذلك، فكيف بعثمانَ رَضِيَ الله عنه!

---

١ – لما خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد، قد رأيت ختنك (صهرك) ومعه امرأته. قال: "على أي حال رأيتهما؟". قالت: رأيته قد حمل امرأته على حمار، وهو يسوقها. فقال رسول الله ﷺ "صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام". ابن كثير – البداية والنهاية – باب من هاجر إلى الحبشة.

٢ – للجلال السيوطي وغيره من العلماء قبله وبعده كتب ألَّفوها في تسمية الأشخاص الذين سبقوا غيرهم إلى شيء من الأعمال المحمودة.

٣ – يعني بين المسلمين.

٤ – يعني لم يطلب ممن امتنع عن مبايعته.

٥ – لم تكن نفْس عثمان تتطلع إلى الخلافة.

٦ – عبارة الأصل مضطربة وقد غيَّرتُها على النحو المشاهَد.

خروج أهل الأهواء على عثمان

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وقد سَمَّوا مَنْ قام عليه[1]، فوجدْناهم أهلَ أغراضِ سوءٍ[2]، حِيلَ بينَهم وبينَها. فوُعِظوا وزُجِروا[3]. وأقاموا عندَ عبدِ

---

١ – نازعوه وخرجوا عليه.

"كان عبدُ الله بنُ سَبَأ يهودياً فأسلَمَ، وتوجَّه إلى مصرَ حينما علم أن مُخالفي عثمانَ بنِ عفَّان كثيرون هناك، فتظاهرَ بالعِلم والتقوى، حتى افتُتِنَ الناسُ بِهِ، وبعد رسوخه فيهم بدأ يروِّج مذهبَه ومسلكَه، ومنه: أنَّ لكلِّ نَبِيٍّ وصياً وخليفةً، فوصيُّ رسول الله وخليفتُه ليس إلا عليًّا المتحلِّي بالعلم والفتوى، والمتزيِّن بالكرم والشجاعة، والمتَّصف بالأمانة والتُّقى، وقال: إنَّ الأمةَ ظَلَمتْ عليًّا، وغَصَبتْ حقَّه، حقَّ الخلافة والولاية، ويَلزمُ الآنَ على الجميع مناصرتُه ومعاضدتُه، وخلعُ طاعةِ عثمانَ وبيعتِه، فتأثَّر كثيرٌ مِن المصريين بأقوالِهِ وآرائه، وخرجوا على الخليفة عثمان". انظر المؤرخ الشيعي مير خواند في كتابه "روضة الصفا".

٢ – قال الأستاذ محب الدين الخطيب في تحقيقه المفيد لكتاب العواصم من القواصم تبياناً لأغراض هؤلاء:

الذين شاركوا في الجناية على الإسلام يوم الدار طوائف على مراتب: فيهم الذين غلب عليهم الغُلُو في الدين فأكبروا الهِنات (بالغوا في تكبير الهفوات) وارتكبوا في إنكارها الموبقات. وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية يَمَنية على شيوخ الصحابة من قريش، ولم تكن لهم في الإسلام سابقة فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا من مغانم شرعية جزاء جهادهم وفتوحهم، فأرادوا أن يكون لهم مثلها بلا سابقة ولا جهاد. وفيهم الموتورون من حدود شرعية أقيمت على بعض ذويهم فاضطغنوا في قلوبهم الإحنة والغل لأجلها. وفيهم الحمقى الذين استغل السبئيون ضعف قلوبهم فدفعوهم إلى الفتنة والفساد والعقائد الضالة. وفيهم من أثقل كاهله خير عثمان ومعروفه نحوه فكفر معروف عثمان عندما طمع منه بما لا يستحقه من الرئاسة والتقدم بسبب نشأته في أحضانه. وفيهم من أصابهم من عثمان شيء من التعزير لبوادر بدرت منهم تخالف أدب الإسلام فأغضبهم التعزير الشرعي من عثمان. وفيهم المتعجلون بالرياسة قبل أن يتأهلوا لها اغتراراً بما لهم من ذكاء خلاب أو فصاحة لا تغذيها الحكمة، فثاروا متعجلين بالأمر قبل أوانه. وبالإجمال فإن الرحمة التي جبل عليها عثمان وامتلأ بها قلبه أطمعت الكثير فيه، وأرادوا أن يتخذوا من رحمته مطية لأهوائهم.

٣ – وعظهم وزجرهم أهلُ العافية والحكمة والرضا من أعيان أمصارهم وعلمائها في الكوفة والبصرة ومصر، ثم وعظهم وزجرهم معاوية في مجالس له معهم عندما سيَّرهم عثمان إلى الشام.

الرحمنِ بنِ خالدِ بنِ الوليدِ[1]، فتوعدَّهم حتى تابُوا، وأَرْسَلَ بهم إلى عثمانَ فتابُوا[2]، وخَيرَّهم فاختاروا التَّفَرُّقَ في البلادِ، فأَرْسَلَهم[3]، فلمّا سارَ كُلٌّ إلى ما اختارَ أَنْشَأُوا الفِتْنةَ، وألَّبُوا الجماعةَ، وجاءوا إليه[4] بجُمْلتِهم، فاطَّلَعَ عليهم مِنْ حائطِ دارِه وذكَّرَهم، وورَّعَهم عنْ دمِه.

وخَرَجَ طلحةُ[5] يَبْكي ويُوَرِّعُ الناسَ، وأَرْسَلَ عليٌّ ولدَيه[6]، وقال الناسُ[7] لهم: إنكم أَرْسَلْتم إلينا أَقْبِلوا إلى مَنْ غَيَّرَ سُنَّةَ اللهِ[8]، فلما جِئنا قَعَدَ هذا في بيتِه - يَعْنون عَلِيّاً - وخرجْتَ أنتَ[9]، تَفيضُ عيناك، واللهِ لا بَرِحْنا حتى نُريقَ دمَه.

---

١ – وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والياً لمعاوية على حِمْص وما يليها من شمال الشام.

٢ – تظاهروا بالتوبة.

٣ – أطلق سراحهم.

٤ – إلى عثمان.

٥ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ التَّيمي القُرَشي (٢٨ ق.هـ – ٣٦ هـ): أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده. قال عنه النبي صلَّى الله عليه وسلَّم إنه شهيد يمشي على الأرض فقال: «من سرَّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

٦ – الحسن والحسين ليكونا في حراسة الخليفة عثمان.

٧ – المقصود بالناس: البُغاة الذين جاءوا لقتل عثمان.

٨ – زعموا أنهم تلقوا من عليٍّ كتاباً يدعوهم للثورة على عثمان، وكذبوا.

٩ – الخطاب لطلحة بن عبيد الله.

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وهذا قَهْرٌ عظيمٌ وافتئاتٌ[1] على الصحابةِ وكَذِبٌ في وجوهِهم وبَهْتٌ لهم، ولو أراد عثمانُ لكانَ مُسْتَنصِراً بالصحابةِ، ولَنَصَرُوه في لحظةٍ[2]، وإنما جاء القومُ مُسْتجِيرينَ مُتَظَلِّمين[3]، فوَعَظوهم فاسْتَشاطوا[4]، فأراد الصحابةُ أَلَّهُم[5]، فأَوْعَزَ إليهم عثمانُ ألّا يُقاتَلَ أحدٌ بسببِه أبداً، فاستَسْلمَ وأَسْلمُوه برضاه.

وهي مسألةٌ مِنَ الفِقْهِ كبيرةٌ: هل يجوزُ للرجلِ أنْ يَسْتسلمَ، أمْ يجبُ عليه أنْ يُدافِعَ عن نفْسِه؟ وإذا استسلمَ وحَرَّمَ على أحدٍ أنْ يدافعَ عنه بالقتلِ، هل يجوزُ لغيرِه أنْ يدافعَ عنه ولا يلتفتَ إلى رضاه؟ اختلفَ العلماءُ فيها. فلم يأتِ عثمانُ مُنْكراً لا في أَوّلِ الأمرِ ولا في آخرِه، ولا جاء الصحابةُ بمنْكرٍ، وكُلُّ ما سمعتَ من خبرٍ باطلٍ إياكَ أنْ تلفتَ إليه.

---

١ – افتراء وكذب.

٢ – عرض عليه معاوية أن ينقل دار الخلافة إلى الشام أو يمده بجند من الشام أشداء فرفض عثمان.

٣ – يتظاهرون بأنهم متظلّمون ولديهم شكوى.

٤ – اشتد غضبُهم.

٥ – طعنَهم بالألَّة، وهي الحَرْبة العريضة النَّصل.

افتراءات الخونة على عثمان

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وقد افترى هؤلاء الخونةُ على عثمانَ افتراءاتٍ عديدةٍ ليبرِّروا خروجَهم عليه وحصارَه وقتلَه بعد ذلك، فقالوا مُتَعدِّين، مُتَعَلِّقين بروايةِ كذَّابين: جاء عثمانُ في وِلايَتِه بمَظالمَ ومَناكيرَ، منها:

١- ضَرْبُه لعَمَّارٍ[١] حتى فَتَقَ أمعاءَه.
٢- وضربُه لابنِ مسعودٍ[٢] حتى كَسَرَ أضلاعَه ومَنَعَه عطاءَه.
٣- وابتَدَعَ في جَمْعِ القرآنِ وتأليفِه، وفي حَرْقِ المصاحفِ.

---

١ – عمار بن ياسر صحابي من موالي بني مخزوم ومن السابقين إلى الإسلام. كان من المستضعفين الذين عُذّبوا ليتركوا دين الإسلام. قيل هاجر إلى الحبشة، كما هاجر إلى المدينة المنورة، وشارك مع النبي في غزواته كلها. كما شارك بعد وفاة النبي في حروب الردة، وقُطعت أُذنه في معركة اليمامة. ولاّه عمر بن الخطاب على الكوفة ثم عزله، وشارك في آخر عمره إلى جانب علي بن أبي طالب في حربه مع معاوية بن أبي سفيان إلى أن قُتل في وقعة صفين وهو يقاتل ضمن صفوف جيش علي ضد جيش معاوية.

٢ – عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الصاهلي الهذلي (المتوفى سنة ٣٢ هـ) فقيه الأمة وصحابي جليل ووزير ومقرئ ومحدّث من المكثرين في الحديث النبوي، وهو أحد السابقين إلى الإسلام وهو سادس من أسلم وأحد المبشرين بالجنة، وصاحب نعلي النبي ﷺ وسواكه، وواحد ممن هاجروا الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة، وممن أدركوا القِبلتين، وهو أول من جهر بقراءة القرآن في مكة وشهد جميع المشاهد مع النبي ﷺ. وهو الذي قتل أبا جهل وقطع رأسه في معركة بدر وقدمه إلى النبي ﷺ. وقد تولى قضاء الكوفة ووزارتها وبيت مالها في خلافة عمر وصدر من خلافة عثمان.

٤- وحَمَى الحِمَى[١].

٥- وأجْلَى أبا ذَرٍّ[٢] إلى الرَّبَذَةِ.

٦- وأَخْرَجَ مِنَ الشامِ أبا الدَّرْداءِ[٣].

٧- وردَّ الحَكَمَ[٤] بعدَ أنْ نَفاه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ.

٨- وأبْطَلَ سُنَّةَ القَصْرِ في الصَّلَواتِ في السَّفَرِ.

---

١ – الحِمَى أراضٍ خصِّصت لرعي الإبل والخيل الّتي تملكها الدَّولة، وقد استمرَّت حماية وادي النَّقيع في خلافة أبي بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما حيث كان النَّبيّ ﷺقد حماه للخيل، وطوله ثمانون كيلو متراً، ويبدأ جنوب المدينة بـ٤٠ كيلو متراً، وقد كثرت المناطق المحميَّة في خلافة عمر رضي الله عنه لكثرة ما تملكه الدَّولة من الإبل، والخيل المعدَّة للجهاد، ونهج عثمانُ نهجَ من سبقه في الحمى بسبب اتِّساع الدَّولة، وازدياد الفتوحات في عهده، وقد اقتصر في الحمى على صدقات المسلمين لحمايتها، وعلى هذا فإنَّ عثمان رضي الله عنه زاد في الحمى لَمَّا زادت الرَّعيَّة.

٢ – أَبُو ذَرٍّ جُنْدَبُ بْنُ جُنَادَةَ ٱلْغِفَارِيُّ (المتوفَّى سنةَ ٣١ هـ): صَحابي من السابقين إلى الإسلام. قيل إنَّه رابع أو خامس من دخل في الإسلام، وأحد الذين جهروا بالإسلام في مكة قبل الهجرة النبوية. كان أبو ذر الغِفاري في الجاهلية يتكسَّب من قطع الطريق، كما كان موحِّدًا، ولا يعبد الأصنام. وحين بلغته الأخبار بأن هناك من يدعو للتوحيد في مكة، سارع إلى الإسلام، فكان من السابقين إلى الإسلام. هاجر إلى المدينة المنورة بعد غزوتي بدر وأُحُد، ولزم النبي ﷺ، وشارك في غزواته. شهد أبو ذر فتح بيت المقدس مع عمر بن الخطاب، وأقام في الشام. تسببت حدَّته في فساد العلاقة مع والي الشامِ معاوية بن أبي سفيان، فكتب معاوية يشكوه إلى عثمان بن عفان بأنه أفسد عليه الشامَ، فطلبه عثمان؛ فخرج أبو ذر إلى المدينة. وفي المدينة حدثت خلافات، خرج إلى الرَّبْذَة حيث توفي فيها سنة ٣١ هـ وصلى عليه عبد الله بن مسعود، وأحده بنفسه.

٣ – أَبُو الدَّرْدَاءِ الأنصَارِيُّ، صحابي وفقيه وقاضٍ وقارئ قرآن وأحد رواة الحديث النبوي، وهو من الأنصار من بني كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج. أسلم متأخرًا يوم بدر، ودافع عن النبي ﷺ يوم أُحُد، وشهد ما بعد ذلك، وكان من المجتهدين في التعبد وقراءة القرآن. رحل إلى الشام بعد فتحها ليُعلّم الناس القرآن، وليُفقّههم في دينهم، وتولى قضاء دمشق، ظل بها إلى أن مات فيها في خلافة عثمان بن عفان.

٤ – الحَكَم بن أبي العاص الأموي العبشمي القرشي الكناني: صحابي شهد حجة الوداع، هو والد الخليفة الأموي مروان بن الحَكَم وعمُّ الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

٩- ووَلَّى مُعاوِيَةَ[١]، وعبدَاللهِ بنِ عامرِ بنِ كُرَيْزٍ[٢]، ومَرْوانَ[٣]، ووَلَّى الوليدَ بنَ عُقبةٍ[٤] وهو فاسقٌ ليس مِنْ أهلِ الوِلايةِ.

١٠- وأَعْطى مَرْوانَ خُمْسَ أفريقيةَ.

١١- وكان عُمَرُ يَضْرِبُ بالدِّرَّةِ[٥] وضَرَبَ هو بالعَصا.

١٢- وعَلَا على دَرَجةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وقدِ انْحَطَّ عنها أبو بكرٍ وعُمَر.

١٣- ولم يَحْضُرْ بَدْراً، وانْهَزَمَ يومَ أُحُدٍ، وغاب عنْ بَيْعةِ الرَّضوانِ.

١٤- ولم يَقْتلْ عُبَيْدَ اللهِ بنِ عُمَر بالهُرْمُزانِ (الذي أَعْطى السِّكِّينَ إلى أبي لُؤلُؤةٍ، وحَرَّضَه على عُمَرَ حتى قَتَلَه).

---

١ – أميرُ المؤمنين وخَليفَةُ الْمُسْلِمين أبُو عَبدَ الرَّحمَن مُعاوِيَة بنُ أبي سُفيان بن حَرب بن أُمَيَّة بن عَبدِ شَمس بن عَبدِ مَناف القُرَشِيُّ (١٥ ق.هـ – ٦٠ هـ): من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، وأحد كُتَّاب الوحي. هو مؤسس الخِلافَة الأُمَويَّة وأوّل خُلَفائها، والخَليفةُ السَّادِس في ترتيب الخُلفاء للنبيِّ ﷺ، وأوَّلُ مَلكٍ في الإسلام. (انظر كتابي: "معاوية كسرى العرب". في فضائل معاوية – على موقع نور وموقع فولة بوك).

٢ – عبد الله بن عامر بن كريز صحابي فتح جميع إقليم خراسان وكان واليا في عهد عثمان حتى عزله معاوية كان شريفاً في قومه بارٌ بهم جوادٌ كريمٌ من أجود رجال قريش والعرب

٣ – مَرْوان بن الحَكَم بن أبِي العاص القُرَشيّ (٢ – ٦٥ هـ): رابع خلفاء الدولة الأموية في دمشق، حكَم أقلَّ من سنة (٦٤ – ٦٥ هـ) وهو مؤسس الدولة الأموية الثانية بعد انتقال الخلافة من البيت السُّفياني إلى البيت المرواني، وعلى قِصَر مدَّة حُكمه، امتازت ذُرِّيَّته بأنها السُّلالة التي حكَمَت العالم الإسلامي بين عامَي ٦٨٥ و٧٥٠م، ثم حكمَت الأندلس بعد زوالها وغلَبة العباسيين بين عامي ٧٥٦ و١٠٣١م. ولادته بمكة ووفاته بدمشق.

٤ – الوليدُ بن عُقْبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرُو الأُمَويُّ القُرشيُّ (المتوفى ٦١ هـ): صحابي، وشاعر، وأخُو عُثمان بن عفَّان لأمه، تولَّى حُكم الكُوفة.

٥ – الدِّرة: عصاً صغيرة يحملها السلطان يزع بها.

١٥- وكَتَبَ مع عبدِه على جَمَلِهِ كتاباً إلى ابنِ أبي سَرْحٍ[١] في قتلِ مَنْ ذَكَرَ فيه.

الرد على هذه الافتراءات

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وهذا كلُّه باطلٌ سَنَداً ومَتْناً:

١- أمَّا قولُهم (جاء عثمانُ بمظالمَ ومَناكيرَ) فباطلٌ[٢].

٢- وأما ضَرْبُه لابنِ مسعودٍ ومنْعُه عطاءَه فزُورٌ[٣]. وضربُه لعمَّارٍ إفْكٌ مثلُه[٤]، ولو فَتَقَ أمعاءَه ما عاشَ أبداً. وقدِ اعتذرَ عنْ ذلكَ العلماءُ بِوُجُوهٍ

---

١ – عبد الله بن سعد بن أبي السَّرْح القرشي (ولد سنة ٢٣ قبل الهجرة بمكة)، صحابي وقائد عسكري وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة ووالي مصر في عهد خلافته وهو فاتح إفريقية وهزم الروم في معركة ذات الصواري وشارك في فتح مصر حيث كان صاحب الميمنة في جيش عمرو بن العاص، وكان فارس بني عامر بن لؤي المعدود فيهم وروى للنبي ﷺ عدة أحاديث، كما أنه أخو الصحابي وهب بن سعد الذي كان أحد شهداء غزوة مؤتة.

٢ – أبطل ابن العربي هذه المناكير كلها ورد عليها فيما يأتي واحدةً واحدة حتى أتى عليها كلَّها وبيَّن وجه الحق فيها.

٣ – لم يضرب عثمان ابنَ مسعود ولم يمنعه عطاءه، وبقي يعرف له قدره كما بقي ابن مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة حين قال: بايعنا خيرَنا ولم نأل. وحتى بعدما غسل عثمانُ مصحفَ ابن مسعود بعد توحيد المصاحف بقي ابنُ مسعود على السمع والطاعة لولي الأمر.

٤ – روى الطبري (٥: ٩٩) عن سعيد بن المسيب أنه كان بين عمَّار وعباس بن عتبة بن أبي لهب خلاف حمل عثمانَ على أن يؤدبهما عليه بالضرب. وهذا مما يفعله ولي الأمر في مثل هذه الأحوال قبل عثمانَ وبعدَه.

لا يَنْبغي أنْ يُشْتَغَلَ بها لأنَّها مَبْنيَّةٌ على باطلٍ، ولا يُبْنى حَقٌّ على باطلٍ، ولا نُذْهِبَ الزمانَ في مماشاةِ الجُهّالِ، فإنَّ ذلكَ لا آخِرَ له.

٣- وأمَّا جمعُ القرآنِ، فتلك حَسَنَتُه العُظْمى وخَصْلَتُه الكُبرى، وإنْ كان وجدَها كامِلةً[١]، لكنَّه أظْهَرها وردَّ الناسَ إليها وحَسَمَ مادَّةَ الخِلافِ فيها. وكان نُفُوذُ وعْدِ اللهِ بحفْظِ القُرآنِ على يديْهِ حسْبما بيَّناه في كُتُبِ القرآنِ وغيرِها[٢].

فقد رَوَى الأئمَّةُ بأجْمَعِهم[٣] أنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ[٤] قال: أَرْسلَ إليَّ أبو بكرٍ مَقْتَلَ[٥] أهلِ اليمامةِ[٦]، فإذا عُمَر بنُ الخطابِ عندَه، فقال أبو بكرٍ: إنَّ عُمَرَ

---

١ – لأن أبا بكر وعمر سبقاه في مسألة جمع القرآن كما سيأتي ذكره.

٢ – مؤلفات ابن العربي المتعلقة بعلوم القرآن كثيرة، منها: (أنوار الفجر) و(قانون التأويل) و(أحكام القرآن) و(كتاب المشكلين) و(الناسخ والمنسوخ).

٣ – وفي مقدمتهم الإمام أحمد في مسنده والإمام البخاري في صحيحه.

٤ – زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاري: صحابي جليل وكاتب الوحي، شيخ المقرئين، مفتي المدينة، روى الحديثَ عن النبيﷺ، وقرأ عليه القرآن بعضَه أو كلَّه.

٥ – هذا ظرف زمان، يعني أرسل في زمان مقتل أهل اليمامة لما ارتدت بنو حنيفة برئاسة مسيلمة الكذاب.

٦ – وقعت معركة اليمامة سنة ١١ هـ من الهجرة في عهد أبي بكر الصديق. واليمامة إحدى معارك حروب الردة، وكانت بسبب ارتداد بني حنيفة وتنبؤ مسيلمة الحنفي الذي ادّعى أن النبي ﷺ قد أشركه في الأمر، وفيها استشهد جمع غفير من حفظة القرآن، ما دعا أبا بكر لجمع القرآن خوفاً من ضياعه بعد استشهاد كثير من الحفاظ يوم اليمامة.

أتانا فقال: إنَّ القتلَ قدِ اسْتَحَرَّ[1] يومَ اليمامةِ بقُرَّاءِ القرآنِ، وإني أخْشى أنْ يَسْتَحِرَّ القتلُ بالقُرَّاءِ بالْمَواطِنِ[2] فيذْهَبَ كثيرٌ مِنَ القرآنِ، وإني أَرى أنْ تَجْمعَ القرآنَ. قلتُ لعُمَر: كيف نَفْعلُ شيئاً لم يَفْعلْه رسولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؟ قال عُمَر: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ يُراجعني حتى شَرَحَ اللهُ صدْري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عُمَر.

قال زيدٌ: قال أبو بكرٍ: إنكَ رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتَّهِمُكَ، وقد كنتَ تَكْتبُ الوحْيَ لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؛ فتَتَبَّعِ القرآنَ فاجْمَعْه؛ فواللهِ لو كَلَّفوني[3] نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبالِ ما كان أَثْقَلَ عليَّ مما أَمَروني به مِنْ جَمْعِ القرآنِ. قلتُ: كيف تَفْعلون شيئاً لم يفعلْه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؟ قال عُمَر: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يزلْ يُراجِعُني حتّى شَرَحَ اللهُ صَدْري للذي شَرَحَ له صَدْرَ أبي بكرٍ وعُمَر، فتَتَبَّعْتُ القرآنَ أَجْمَعُه مِنَ العُسُبِ واللِّخافِ[4] وصدورِ الرِّجالِ، حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ مع خُزَيْمةَ

---

١ – اشتد.

٢ – يعني في الحروب.

٣ – المتكلم زيد بن ثابت.

٤ – العُسُب (جمع عَسيب) أي جريدة النخل، وهي السعفة التي لا ينبت عليها الخوص. واللِّخاف (جمع لَخْفَة) وهي حجارة بِيضٌ رِقاقٌ كانوا يكتبون عليها إذا تعذَّر الوَرَق.

الأَنْصاريِّ لم أجدْها مع أحدٍ غيرِه {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ} حتى خاتمةِ بَراءةٌ.

فكانتِ الصُّحُفُ عند أبي بكرٍ حتى توفَّاه اللهُ، ثمَّ عندَ عُمَرَ حياتَه، ثم عند حَفْصةَ بنتِ عُمَرَ، حتى قَدِمَ حُذَيْفةُ بنُ اليَمانِ[1] على عثمانَ، وكان يُغازي أهلَ الشامِ في فتحِ أرمينيَّةَ مع أهلِ العراقِ، فحَدَّثَه حذيفةُ عن اختلافِهم في القِراءةِ، فقال حذيفةُ لعثمانَ: يا أميرَ المؤمنين، أدرِكْ هذه الأمَّةَ قبلَ أنْ يَخْتلفوا في الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنَّصارى. فأرسلَ عثمانُ إلى حفصةَ أنْ أرْسِلي إلينا بالصُّحِفِ نَنْسَخْها في المصاحفِ ثم نَرَدَّها إليكِ، فأرسَلَتْ بها حفصةُ إلى عثمانَ، فأَمَرَ زيدَ بنَ ثابتٍ وعبدَ اللهِ بنَ الزُّبَيْرِ وسعيدَ بنَ العاصِ وعبدَ الرحمنِ بنَ الحارثِ بنِ هشامٍ فنَسَخُوها في المصاحفِ.

---

١ – حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ العبسي الغطفاني القيسي: صحابي جليل ولد في مكة وعاش في المدينة المنورة ومات سنة ٣٦ هجرية في المدائن. كان يعرف كذلك ويكنى بحافظ سر الرسول، حيث إن الرسول ﷺ كان قد أسرَّ له بأسماء المنافقين المحيطين بهم كافة ولم يُفش هذا السر لأيٍّ كان وهذا هو شأن كل حافظ لسر. وكان خليفة المسلمين عمر بن الخطاب عندما يريد أن يصليَ على أحد أموات المسلمين يسأل عن حذيفة وهل هو من ضمن الحاضرين للصلاة وذلك خوفاً منه أن يصليَ على أحد المنافقين وكان عمر يسأل حذيفة: أفي عمالي منافقٌ؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: لا أخبرك، فحصل ذات يوم جدال بين عمر وأحد العمال فطرده وبعد مرور الأيام عرف أنه هو المنافق.

وقال عثمانُ للرَّهْطِ القُرَشِيِّين الثلاثةِ: «إذا اختلفْتم أنتم وزيدُ بنُ ثابتٍ في شيءٍ مِنَ القرآنِ فاكْتبُوه بلسانِ قريشٍ، فإنَّما نَزَلَ بلسانِهم» فَفَعَلُوا. حتى إذا نَسَخُوا الصُّحُفَ في المصاحفِ رَدَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصةَ، وأرسلَ إلى كلِّ أُفُقٍ[1] بمصحفٍ مما نَسَخُوا، وأَمَرَ بما سواهُ مِنَ القرآنِ في كلِّ صَحيفةٍ ومُصحفٍ أنْ يُحْرقَ.

قال ابنُ شِهابٍ: وأَخْبَرَني خارِجَةُ بنُ زيدِ بنِ ثابتٍ أنه سَمِعَ زيدَ بنَ ثابتٍ قال: فَقَدْتُ آيةً مِنَ الأحزابِ حين نَسَخْنا المصحفَ قد كنتُ أسمعُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَقْرأُ بها، فالتَمَسْناها فوجَدْناها مع خُزَيمةَ الأنصاريِّ {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} فأَلحقْناها في سورتِها مِنَ المصحفِ.

وأمّا ما رُوي أنه حَرَقَها أو خَرَقَها، بالحاء المهمَلةِ أو الخاء المعجَمَةِ - وكلاهما جائزٌ - إذا كان في بَقائها فسادٌ، أو كان فيها ما ليس مِنَ القرآنِ أو ما نُسِخَ منه أو على غيرِ نَظْمِه، فقدْ سَلَّمَ في ذلك الصحابةُ كلُّهم. إلا أنه

١- بلد كبير وهي ما تسمى بالأمصار ومصاحف الأمصار وهي ستة مصاحف: المصحف الكوفي، والمصحف البصري، والمصحف الشامي، والمصحف المكي، والمصحف المدني العام الذي هو لأهل المدينة، والمصحف المدني الخاص الذي حبسه عثمان لنفسه، وهو الذي يسمى: المصحف الإمام.

رُوي عنِ ابنِ مسعودٍ أنه خَطَبَ بالكوفةِ فقال: أمّا بعدُ، فإنَّ اللهَ قالَ {وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} وإني غالٌّ مُصْحَفي، فمنِ استطاعَ منكم أنْ يَغُلَّ مُصْحفَه فليفعلْ. وأراد ابنُ مسعودٍ أنْ يُؤخَذَ بمصْحَفِه، وأنْ يُثْبِتَ ما يَعلمُ فيه، فلمَّا لم يَفْعلْ ذلك قال له ما قال، فأَكْرَهَه عثمانُ على رفعِ مصحَفِه، ومحا رُسومَه لم تُثْبَتْ له قراءةٌ أبداً، ونَصَرَ اللهُ عثمانَ والحقَّ بمحوِها مِنَ الأرضِ.

٤- وأما الحِمَى[١]، فكان قديماً، فيقال إنَّ عثمانَ زاد فيه لَمَّا زادتِ الرَّعِيةُ، وإذا جاز أصلُه للحاجَةِ جازتِ الزيادةُ لزيادةِ الحاجَةِ.

٥- وأمّا نَفْيُه أبا ذَرٍّ إلى الرَّبَذَةِ فلم يَفْعَلْ[٢]، كان أبو ذَرٍّ زاهداً، وكان يُقَرِّعُ[٣] عمالَ عثمانَ، ويَتْلو عليهم {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، ويَراهُم يَتَّسِعُون في المراكبِ والملابسِ حين وَجَدوا فيُنْكِرُ ذلك عليهم، ويُريدُ تفريقَ جميعَ ذلك مِنْ

---

١ – كان الشريف في الجاهلية إذا نزل أرضاً في حَيّه استعوى كلباً فحَمَى لخيله وإبله وسوائمه مَدَى عُواء الكلب لا يَشرَكُه فيه غيرُه. فلما جاء الإسلام نهى النبي ﷺ عن ذلك، واختص الحِمَى بإبل الزكاة المرصدة للجهاد والمصالح العامة، فقال ﷺ: «لا حِمَى إلا لله ورسوله» رواه البخاري من حديث الصعب بن جثامة في كتاب المساقاة.

٢ – اختار أبو ذر أن يعتزل في الربذة بإرادته كما سيبينه ابن العربي بعد قليل.

٣ – يعنفهم ويلومهم ويقلقهم.

بينِ أيديهم، وهو غيرُ لازمٍ. قال ابنُ عُمَر وغيرُه مِنَ الصحابةِ: إنَّ ما أديتَ زكاتَه فليس بِكَنْزٍ، فوقَعَ بينَ أبي ذَرٍّ ومُعاوِيَةَ كلامٌ بالشامِ، فخَرَجَ إلى المدينةَ، فاجْتمَعَ إليه الناسُ، فجَعَلَ يَسْلُكُ تلكَ الطرقَ[1]، فقال له عثمانُ: لو اعتزلْتَ. معناه أنك على مذهبٍ لا يَصْلُحُ لمخالَطَةِ الناسِ، فإنَّ للخُلْطَةِ شُروطاً وللعُزلةِ مِثْلَها، ومَنْ كان على طريقةِ أبي ذَرٍّ فحالُه تَقْتضي أنْ يَنْفرِدَ بنفْسِه، أو يُخالَطَ ويُسَلِّمَ لكل أحدٍ حالَه مما ليس بحرامٍ في الشريعة، فخرجَ إلى الرَّبَذَةِ[2] زاهداً فاضلاً، وتَرَكَ جِلَّةَ فُضَلاءَ، وكُلٌّ على خيرٍ وبركةٍ وفضلٍ، وحالُ أبي ذَرٍّ أفضلُ، ولا تُمَكَّنُ لجميعِ الخَلْقِ، فلو كانوا عليها لهَلَكُوا فسبحانَ مُرَتِّبِ المنازلِ.

ومِنَ العَجَبِ أنْ يُؤخَذَ عليه في أمرٍ فَعَلَه عُمَرُ، فقدْ رُوِيَ أنَّ عُمَر بنَ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عنه سَجَنَ ابنَ مسعودٍ في نَفَرٍ من الصحابةِ بالمدينةِ حينَ استُشْهِدَ، فأَطْلَقَهم عثمانُ، وكان سَجَنَهم[3] لأنَّ القومَ أكثَروا الحديثَ عنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ.

---

١ – يعني يفعل مثلما كان يفعل في الشام من تقريع.

٢ – مدينة تاريخية أثرية، تقع في شرق المدينة المنورة وكان أبو ذر أول من سكنها.

٣ – نبه ابن حزم على أن هذا الخبر مرسل ولا يجوز الاحتجاج به.

ووقَعَ بينَ أبي ذَرٍّ ومعاويةَ كلامٌ بالشام[1]، وكان أبو ذَرٍّ يُطْلِقُ مِنَ الكلامِ ما لم يكنْ في زمانِ عُمَرَ، فأعلَمَ مُعاوِيَةُ بذلك عثمانَ، وخَشِيَ مِنَ العامةِ أنْ تَثورَ منهم فتنةٌ، فإنَّ أبا ذَرٍّ كان يَحْمِلُهم على التَّزَهُّدِ وأمورٍ لا يَحْتَمِلُها الناسُ كلُّهم، وإنَّما هي مخصوصةٌ ببعضِهم، فكَتَبَ إليه عثمانُ كما قدَّمنا أنْ يَقْدُمَ المدينةَ، فلما قَدِمَ اجتمَعَ إليه الناسُ، فقال لعثمانَ: أريدُ الرَّبَذَةَ. فقال له: افعلْ. فاعتزلَ[2]. ولم يكنْ يَصْلُحُ له إلا ذلك لطريقتِه.

٦- ووقَعَ بينَ أبي الدَّرْداءِ ومُعاوِيَةَ كلامٌ، وكان أبو الدرداءَ زاهداً فاضلاً قاضِياً لهم، فلمَّا اشتدَّ في الحقِّ وأخرجَ طريقةَ عُمَرَ في قومٍ لم يَحْتَمِلوها عَزَلُوه، فخَرَجَ إلى المدينةِ.

---

١ – وكان ذلك بدسيسة من عبد الله بن سبأ فإنه لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجبُ إلى معاويةَ يقول: "المال مال الله، ألا إن كل شيء لله" كأنه يريد أن يحتجنه (يحتبسه) دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين. فذهب أبو ذر إلى معاويةَ فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين "مال الله"؟ قال معاويةُ: يرحمُك الله يا أبا ذر ألسنا عبادَ الله والمالُ مالُه والخلقُ خلقُه والأمرُ أمرُه؟ قال أبو ذر: فلا تقلْه. قال معاويةُ: سأقول "مال المسلمين". الطبري (٥: ٦٦).

٢ – استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة وقال: "إن رسول الله أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا" فأذن له، ونزل الربذة وبنى بها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقاً. ابن حبان (١٥٤٩ موارد الظمآن) ابن خلدون (العبر ٢: ١٣٩).

وهذه كلُّها مصالحُ لا تَقْدَحُ في الدِّينِ، ولا تُؤثِّرُ في منزلةِ أحدٍ مِنَ المسلمين بحالٍ، وأبو الدَّرداءِ وأبو ذرٍّ بَريئانِ مِنْ عابٍ، وعثمانُ بريءٌ أعظمَ براءةٍ وأكثرَ نزاهةٍ، فمَنْ رَوَى أنه نَفَى ورَوَى سبباً فهو كلُّه باطلٌ.

٧- وأمّا رَدُّ الحَكَمِ[١] فلمْ يَصِحَّ[٢]. وقال علماؤنا في جوابِه: قد كان أَذِنَ له رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. وقال عثمانُ[٣] لأبي بكرٍ وعُمَرَ، فقالا له: إن كان معكَ شهيدٌ رَدَدْناه، فلما وَلِيَ قَضَى بعلْمِه

١ – الحَكَم بن أبي العاص الأمويّ، عم عثمان بن عفان، وابن عم أبي سفيان، من مسلمة الفتح، وله أدنى نصيب من الصحبة. غادر المدينة، ومعه ابنُه مروان، فلم يزل هو وابنه خارجَها في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلمَّا ولي عثمانُ أعادَه إلى المدينة. وقد وردت أحاديثُ منكَرة غالبُها فيه مقال، في لَعْنه، لا يجوز الاحتجاج بها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ما مختصره: الْحَكَمَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ كَانَ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ... وَقَدْ طَعَنَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي نَفْيِهِ، وَقَالُوا: هُوَ ذَهَبَ بِاخْتِيَارِهِ. وَقِصَّةُ نَفْيِ الْحَكَمِ لَيْسَتْ فِي الصِّحَاحِ، وَلَا لَهَا إسْنَادٌ يُعْرَفُ بِهِ أَمْرُهَا. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرْوِي أَنَّهُ حَاكَى النبي صلى الله عليه وسلم في مشيته وقيل غير ذلك، ويقولون إنه نفاه إلى الطائف. وإذا كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ عَزَّرَ رَجُلًا بِالنَّفْيِ، لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَبْقَى مَنْفِيًّا طُولَ الزَّمَانِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ، وَلَمْ تَأْتِ الشَّرِيعَةُ بِذَنْبٍ يَبْقَى صَاحِبُهُ منفيًّا دائمًا.

٢ – يعني لم يصح أنه خالف في رده الشرعَ.

٣ – يعني طلب من كلٍّ منهما ردَّه.

في رَدِّه، وما كان عثمانُ لِيَصَلَ مَهْجورَ[1] رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ولو كان أَباه، ولا لِيَنْقُضَ حُكْمَه.

٨- وأمَّا تركُ القَصْرِ[2] فاجتهادٌ[3]، إذ سَمِعَ أنَّ الناسَ افتُتِنوا بالقَصْرِ، وفَعَلُوا ذلك في منازِلِهم، فرأى أَنَّ السُّنَّةَ ربما أدَّتْ إلى إسقاطِ الفريضةِ، فتَرَكَها خَوْفَ الذَّريعةِ[4]، مع أنَّ جماعةً مِنَ العلماءِ قالوا إنَّ المسافرَ مُخَيَّرٌ بينَ القَصْرِ والإتمامِ، واخْتَلَفَ في ذلك الصحابةُ[5].

٩- وأمَّا مُعاوِيَةُ فعُمَرُ ولَّاهُ وجَمَعَ له الشَّامَاتِ كلَّها، وأَقَرَّه عثمانُ. بلْ إنَّما ولَّاهُ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه، لأنه ولَّى أخاه

١- يعني من هجره الرسول.

٢ - قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين.

٣ - عاتب عبدُ الرحمن بن عوف عثمانَ في إتمامه الصلاة وهم في مِنى، فاعتذر له عثمان بأن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قالوا في العام الماضي: إن الصلاة للمقيم ركعتان، وهذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين. ثم قال عثمان لعبد الرحمن بن عوف: وقد اتخذت بمكة أهلًا (أي تزوج فصار في حُكم المقيم لا المسافر) فرأيتُ أن أصلي أربعًا لخوف ما أخاف على الناس. (الطبري ٥: ٥٦ - ٥٧).

٤ - يعني سداً للذريعة ومنعاً من تحوّل المباح إلى مفسدة. ومعنى كلمة الذريعة: الوسيلة إلى الشيء.

٥ - روي عن جماعة من الصحابة أنهم كانوا يتمون الصلاة في السفر منهم عائشة وسلمان وغيرهما.

يَزيدَ[1]، واستَخْلَفَه يزيدُ، فأَقَرَّهُ عُمَرُ لتَعَلُّقِه بولايةِ أبي بكرٍ لأجْلِ استخلافِ والِيه له، فتعلَّقَ عثمانُ بعُمَرَ وأقرَّه. فانظُرُوا إلى هذه السِلْسلةِ ما أَوْثَقَ عُراها ولنْ يأتيَ أحدٌ مثلَها أبداً بعدَها.

وأمَّا عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ كُرَيْزٍ[2] فولَّاهُ كما قال لأنَّه كريمُ العَمَّاتِ والخالاتِ.

وأمّا تَوْلِيةُ الوليدِ بنِ عُقْبةَ[3] فإنَّ الناسَ على فسادِ النياتِ أَسْرعوا إلى السيئاتِ قبل الحسناتِ؛ فذَكَرَ الافترائيُّون أنه إنما ولَّاهُ للمَعْنى الذي تَكَلَّمَ به، قال عثمانُ: ما وَلَّيْتُ الوليدَ لأنه أخي،

---

١ – يزيد بن أبي سفيان الأموي القرشي: صحابي جليل من فضلاء الصحابة استعمله النبي ﷺ على صدقات بني فراس من قبيلة كنانة وكانوا أخواله، وهو أحد القادة الذين أرسلهم الخليفة أبو بكر الصدّيق لفتح بلاد الشام. ويقال له يزيد الخير.

٢ – عبد الله بن كريز القرشي صحابي جليل فتح جميع إقليم خراسان وكان والياً في عهد عثمان حتى عزله معاوية وهو شريفٌ في قومه بارٌ بهم جوادٌ كريمٌ من أجود رجال قريش والعرب.

٣ – هو أخوه لأمِّه أروى بنت كريز، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم، كان شاباً ماضي العزيمة رضِيّ الخُلُق صادق الإيمان استعمله أبو بكر في الحروب تحت قيادة خالد بن الوليد.

وإنما وَلَّيْتُه لأنه ابنُ أمِّ حكيمٍ البيضاءِ عمَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وتَوْأَمَةِ أَبيه. وسيأْتي بيانُه إنْ شاء اللهُ.

والوِلايةُ اجتهادٌ، وقد عَزَلَ عُمَرُ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ وقدَّمَ أقلَّ منه درجةً.

وأمّا قولُ القائلينَ في مَرْوانَ[1] والوليدِ فشديدٌ عليهم، وحُكْمُهم عليهما بالفِسْقِ فِسْقٌ منهم، مَرْوانُ رجلٌ عَدْلٌ مِنْ كبارِ الأمةِ عندَ الصحابةِ والتابِعينَ وفقهاءِ المسلمين: أمَّا الصحابةُ فإنَّ سهلَ بنَ سعدٍ الساعِديَّ رَوَى عنه، وأمَّا التابعون فأصحابُه في السِّنِّ، وإنْ كان جازَهم باسمِ الصُّحْبةِ في أحدِ القولينِ، وأمَّا فقهاءُ الأمصارِ فكُلُّهم على تعظيمِه واعتبارِ خلافتِه والتلفُّتِ إلى فَتْواهُ والانقيادِ إلى روايتِه، وأمَّا السفهاءُ مِنَ المؤرِّخينَ والأُدباءِ فيقولونَ على أقدارِهم.

---

١ – مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي القرشي رابع خلفاء الدولة الأموية كان كاتباً لعثمان بن عفان أثناء خلافته، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ولاه معاوية على المدينة.

وأمَّا الوليدُ[1] فقدْ رَوَى بعضُ المفسِّرين أنَّ اللهَ سمَّاه فاسقاً في قولِه {إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} فإنَّها في قولِهم نزلتْ فيه، أرسلَه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إلى بَني المصْطَلِقِ[2] فأَخْبَرَ عنهم أنَّهمُ ارْتَدُّوا فأرسلَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إليهم خالدَ بنَ الوليدِ فتَثَبَّتَ في أمرِهم فبيَّن بُطلانَ قولِه. وقد اختُلِفَ فيه فقيلَ نزلتْ في ذلك وقيل في عليٍّ والوليدِ في قصةٍ أُخْرى. وقيل إنَّ الوليدَ سيقَ يومَ الفتحِ في جُملةِ الصِّبيانِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فمَسَحَ رؤوسَهم وبَرَّكَ عليهم إلَّا هو، فقال إنه كان على رأسي خلوق[3] فامتنع صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَسِّه، فمَنْ يكونُ في مثلِّ هذه السنِّ يُرْسَلُ مصَدِّقاً؟ وبهذا الاختلافِ يُسْقِطُ العلماءُ الأحاديثَ القويةَ، وكيف يُفَسَّقُ

١- الوليد بن عقبة.

٢- أي ليأخذ منهم صدقاتهم زكاة أموالهم. ويسمى جامِعُ الصَّدَقاتِ وآخِذُها "الْمُصَدِّق".

٣ - طِيب مركَّب من الزعفران ومواد أخرى، ويغلب عليه الحمرة والصفرة، وهو مستثنى من المنع على المحرِم في الحج، فيجوز للمُحرِمِ شمه بخلاف غيره من أنواع الطيب.

رجلٌ بمثلِ هذا الكلامِ؟ فكيف برجلٍ مِنْ أصحابِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؟

وأمَّا حدُّه في الخمْرِ[1]، فقد حَدَّ عُمَرُ قُدامةَ بنَ مظعونٍ[2] على الخمر وهو أميرٌ وعزَلَه. ثم قيل إنه صالحَه. وليستِ الذنوبُ مُسْقِطةً للعدالةِ إذا وقعتْ منها التوبةُ.

وقد قيل لعثمانَ إنك ولَّيتَ الوليدَ لأنه أخوكَ لأمِّك أَرْوى بنتِ كُرَيْزِ بنِ ربيعةَ بنِ حبيبِ بنِ عبدِ شمسٍ فقال: بل لأنه ابنُ عمَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أمِّ حكيمٍ البيضاءِ جَدَّةِ عثمانَ وجَدَّةِ الوليدِ لأمِّهما أَرْوى المذكورةِ أمِّ حكيمٍ تَوْأَمَةِ عبدِ اللهِ أبي

---

١ – في الصحاح أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان – رضي الله عنه – أمر بجلد أخيه لأمه الوليد بن عقبة. ففي صحيح مسلم: عن حضين بن المنذر أبو ساسان، قال: شهدت عثمانَ بنَ عفان وأُتِي بالوليد قد صلَّى الصبحَ ركعتين، ثم قال: أزيدُكم، فشهد عليه رجلان أحدُهما حمران أنه شرب الخمرَ، وشهد آخرُ أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها، فقال: يا عليُّ، قم فاجلدْه، فقال عليٌّ: قم يا حسنُ فاجلده، فقال الحسنُ: وَلِّ حارَّها مَن تولى قارَّها، فكأنه وَجَد عليه، فقال: يا عبدَ الله بن جعفر قم فاجلدْه، فجلده وعليُّ يعدّ حتى بلغ أربعين، فقال: أمسكْ، ثم قال: «جلد النبيُّ صلى الله عليه وسلم أربعين».

٢ – قدامة بن مظعون الجمحي أحد السابقين الأولين، هاجر الهجرتين وشهد بدراً، وكان صهر أمير المؤمنين عمر على أخته، وقيل بل هو خال أم المؤمنين حفصة بنت عمر وأخيها عبيد الله.

رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. وأيُّ حَرَجٍ على المرءِ أنْ يُوَلِّيَ أخاهُ أو قريبَه[1]؟

١٠- وأمَّا إعطاؤهُ خُمْسَ أفريقيةَ لواحدٍ فلم يصحَّ[2]، على أنه قد ذَهَبَ مالِكٌ وجماعةٌ إلى أن الإمامَ يَرَى في الخمسِ وينفِّذُ فيه ما أدَّاه إليه اجتهادُه، وأنَّ إعطاءَه لواحدٍ جائزٌ، وقد بيَّنا ذلك في مواضِعِه.

١١- وأمَّا قولُهم إنه ضَرَبَ بالعَصا، فما سمعتُه ممَّن أطاعَ أو عَصى، وإنما هو باطلٌ يُحكى، وزُورٌ يُنْثى[3]، فيا للَّهِ وللنُّهى.

---

١ – أمير المؤمنين علي بن أبي طالب جعل الأمراء في مدة خلافته على أكثر أمصار حكمه من ذوي قرابته. ورسول الله ﷺ ولى رجال بني أمية وشبابهم. وكذلك فعل أبو بكر وعمر، فلم يفعل عثمان إلا الذي سبقه إليه النبي ﷺ وصاحباه.

٢ – والذي صح هو إعطاؤه خمس الخمس لعبد الله بن أبي سرح جزاء جهاده المشكور، ثم عاد فاسترده منه.

٣ – نثا الخبرَ والحديثَ: أذاعَه وأظهرَه.

١٢- وأمَّا عُلُوُّه على درجةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[١] فما سمعتُه ممَّن فيه تَقِيَّة[٢]، وإنَّما هي إشاعةُ مُنْكَر، ليُروَى ويُذْكَر، فيَتَغَيَّرُ قلبُ مَنْ يَتَغَيَّر. قال علماؤنا: ولو صَحَّ ذلك فما في هذا ما يُحِلُّ دَمَه، ولا يَخْلو أنْ يكونَ ذلك حقًّا فلمْ تُنْكِرْه الصحابةُ عليه، إذ رأتْ جوازَه ابتداءً أو لسببٍ اقْتَضى ذلك[٣]. وإن كان لم يكنْ فقدِ انقَطَعَ الكَلامُ.

١٣- وأمَّا انهزامُه يومَ حُنَينٍ وفِرارُه يومَ أُحُدٍ ومَغيبُه عنْ بدْرٍ وبَيْعةِ الرِّضْوانِ، فقدْ بيَّن عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ وجْهَ الحُكْمِ في شأنِ البَيْعةِ وبدْرٍ وأُحُدٍ. وأمّا يومَ حُنَيْن فلمْ يَبْقَ إلا نَفَرٌ يسيرٌ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. ولكنْ لم يَجْرِ في الأمرِ تفسيرُ مَنْ بَقِيَ معه إلا العبَّاسُ وابناهُ عبدُ اللهِ وقَثَم، فناهيكَ بهذا الاختلافِ،

---

١ – يعني درجات المنبر عند الخطبة.

٢ – تقوى وخشية.

٣ – قيل إنه لما ازداد عدد المصلين بازدياد عدد سكان المدينة وقاصديها وسع أمير المؤمنين عثمان مسجد الرسول وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع وجدد بناءه. فاتساع المسجد وازدياد الناس وبُعد أمكنة بعضهم عن منبر الخطابة يجوز أن يكون من ضرورات ارتفاع الخطيب ليراهم ويروه ويسمعوه.

وهو أمرٌ قدِ اشتَرَكَ فيه الصحابةُ، وقدْ عفا اللهُ ورسولُه، فلا يَحِلُّ ذِكْرُ ما أَسْقَطَه اللهُ ورسولُه والمؤمنون.

أخْرَجَ البُخاريُّ[1]: جاء رجلٌ إلى ابنِ عُمَرَ فسَأَلَه عنْ عثمانَ، فذَكَرَ عنْ محاسنِ عملِه وقال: لعلَّ ذلك يَسوؤكَ؟ قال: نعمْ. قال: فأَرْغَمَ اللهُ بأَنْفِك! ثمَّ سَأَلَه عنْ عَلِيٍّ، فذَكَرَ محاسِنَ عملِه وقال: وهو ذاك بيتُه أوْسطُ بيوتِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. ثمَّ قال: لعلَّ ذلك يُسوؤك؟ قال: أجلْ. قال «بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ» زيادةٌ فيه للبخاريِّ في عليٍّ وعثمانَ.

وقدْ أَخْرَجَ البُخارِيُّ أيضاً[2] مِنْ حديثِ عثمانَ بنَ عبدِاللهِ بنِ موهبٍ قال: جاءَ رجلٌ مِنْ أهلِ مصرَ يُريدُ حَجَّ البيتِ، فرَأَى قَوْماً جُلوساً، فقالَ: مَنْ هؤلاءِ؟ قالوا: هؤلاءِ قريشٌ. قال: فمَنِ الشيخُ فيهم؟ قالوا: عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ. قال: يابنَ عُمَر: إني سائلُكَ عنْ

---

١ – كتاب فضائل الصحابة.

٢ – المرجع السابق.

شيءٍ فحدِّثْني عنه، هل تعلمُ أنَّ عثمانَ فَرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعمْ. فقال: تعلمُ أنَّه تَغَيَّبَ عنْ بَدْرٍ ولم يَشْهدْ؟ قال: نعمْ. قال: هل تعلمُ أنه تَّغَيَّبَ عنْ بيعةِ الرِّضْوانِ فلم يشهدْها؟ قال: نعمْ. قال: اللهُ أكبرُ! قال ابنُ عُمَرَ: تعالَ أبيِّنْ لَكَ: أمَّا فِرارُه يومَ أُحُدٍ فأَشْهدُ أنَّ اللهَ عفا عنه وغَفَرَ له، وأمّا تَغَيُّبُه عنْ بَدْرٍ فإنه كان تحتَه بنتُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وكانتْ مريضةً فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شَهِدَ بدراً وسَهْمَه. وأمّا تَغَيُّبُه عنْ بيْعةِ الرِّضوانِ فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطنِ مكةَ مِنْ عثمانَ لبَعَثَه مَكانَه، فبَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ عثمانَ (وكانتْ بيعةُ الرِّضْوانِ بعدما ذَهَبَ عثمانُ إلى مكةَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بيدِه اليُمنى: «هذه يدُ عثمانَ» فضَرَبَ بها على يدِه فقال: «هذه لعثمانَ». ثم قال له ابنُ عُمَرَ: اذهبْ بها الآن معك.

١٤- وأمَّا امتناعُه عنْ قتلِ عبيدِ اللهِ بنِ عُمَر بنِ الخطابِ بالهُرْمُزانِ[١] فإن ذلك باطلٌ[٢]. فإن كان لم يفعلْ فالصحابةُ متوافرون والأمرُ في أولِّه. وقد قيل: إنَّ الهرمزانَ سعى في قتلِ عُمَرَ، وحَمَلَ الخِنْجرَ وظَهَرَ تحتَ ثيابِه، وكان قتلُ عبيدِ اللهِ له وعثمانُ لم يَلِ بعدُ، ولعلَّ عثمانَ كان لا يَرَى على عبيدِ اللهِ حقًّا، لِمَا ثَبَتَ عندَه مِنْ حالِ الهُرْمزانِ وفعلِه، وأيضاً فإنَّ أحداً لم يَقُمْ بطَلَبِه. وكيف يَصِحُّ مع هذه الاحتمالاتِ كلِّها أنْ يُنْظَرَ في أمرٍ لم يَصِحَّ؟

١٥- وأما تعلُّقُهم بأنَّ الكتابَ وُجِدَ مع راكبٍ، أو مع غلامِه - ولم يَقُلْ أحدٌ قَطُّ إنه كان غلامَه - إلى عبدِ اللهِ بنِ سعدِ بنِ أبي سَرْحٍ[٣]

---

١ – لما قتل أبو لؤلؤة عمرَ بن الخطاب سارع بقتل نفسه، وقد رأى عبد الرحمن بن أبي بكر الهرمزان وجماعة فيهم أبو لؤلؤة يتشاورون ليلة مقتل عمر. فلما فوجئوا به اضطربوا وسقط منهم خنجر له نصلان وشهد عبد الرحمن بن أبي بكر أنه نفسُ الخنجر الذي طُعن به عمر. لذا سارع عبيد الله بن عمر إلى قتل الهرمزان.

٢ – قيل إن عثمانَ دعا ابنَ الهرمزان ليقتل عبيدَ الله بأبيه فعفا عنه.

٣ – عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي صحابي وقائد عسكري وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة ووالي مصر في عهد خلافته وهو فاتح إفريقية وهزم الروم في معركة ذات الصواري. وأما قصة الكتاب المزور على عثمان

يأمرُه بقتلِ حامِلِيه[1]، فقد قال لهم عثمانُ: إمَّا أنْ تُقيموا شاهدَينِ على ذلك، وإلا فيَمِيني أني ما كتبتُ ولا أَمرتُ. وقدْ يُكتَبُ على لسانِ الرَّجلِ، ويُضْرَبُ على خَطِّه، ويُنْقَشُ على خاتَمِه[2].

فقالوا لِتُسْلِمْ لنا مَروانَ. فقال: لا أَفْعَلُ. ولو سَلَّمَه لكان ظالماً، وإنما عليهم أنْ يَطْلُبوا حَقَّهم عندَه على مروانَ وسِواه، فما ثَبَتَ كان هو مُنفِذَه وآخِذَه والممكِّنَ لمن يأخذُه بالحقِّ. ومع سابقتِه وفضيلتِه ومكانتِه لم يَثْبُتْ عليه ما يوجِبُ خَلْعَه فضلاً عنْ قتلِه.

اجتماعُ ذوي الأحقاد

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وأَمَثلُ ما رُوِيَ في قِصَّتِه أنه - بالقضاءِ السابقِ - تألبَّ عليه قومٌ لأحقادٍ اعتقَدُوها، ممَّن طَلَبَ أَمْراً فلمْ يَصِلْ إليه، وحَسَدِ حَسادَةٍ أظهرَ داءَها، وحَمَلَه على ذلك

فقيل إن فيه أمرا لابن أبي سرح بقتل بعض الثوار المصريين. وهو كتاب مصنوع لتجديد الفتنة ورد الثوار إلى المدينة. وهو ما نجح فيه من صنعوه.

١ – المقصود قتل من وردت أسماؤهم فيه.

٢ – يخاطبهم عثمان بالعقل وأن التزوير وتقليد الخط أمر سهل معروف.

قِلَّةُ دِينٍ وضَعْفُ يَقينٍ، وإيثارُ العاجِلَةِ على الآجِلَةِ. وإذا نَظَرْتَ إليهم دَلَّكَ صَريحُ ذِكْرِهم على دَناءةِ قلوبِهم وبُطْلانِ أمرِهم.

كان الغافِقِيُّ المِصريُّ[١] أميرَ القومِ، وكِنانةُ بنُ بِشْرٍ التَّجيبيُّ[٢] وسُودانُ بنُ حمرانَ[٣] وعبدُ اللهِ بنُ بُدَيْلِ بنِ وَرْقاءَ الخُزاعِيِّ[٤]. وحكيمُ بنَ جَبَلَةَ مِنْ أهلِ البَصْرةِ[٥]. ومالِكُ بنُ الحارثِ الأَشْتَرُ[٦] في طائفةٍ هؤلاءِ رؤوسُهم، فناهيكَ بغيرِهم.

---

١ – هو الغافقي بن حرب العكي من أبناء القبائل اليمنية التي نزلت مصر عند الفتح. ونجح ابن سبأ في تجنيده.

٢ – وهو أيضاً ممن استماله ابن سبأ. كان ممّن دخل على عثمان، ورفع مَشاقصَ كانت في يده، فوجأ بها في أصل أُذن عثمان، فمضت حَتَّى دخلت في حلقه، ثُمَّ علاه بالسَّيف حَتَّى قتله.

٣ – من قبائل مراد اليمنية النازلة في مصر، كان أحد الذين قدموا في خلافة عمر للجهاد مع جيوش اليمن بقيادة حصين بن نمير ومعاوية بن حديج، فلما استعرضهم أمير المؤمنين عمر وقع نظره على سودان بن حمران هذا وعلى زميله خالد بن ملجم فتشاءم منهما وكرههما.

٤ – أسلم عَبْدُ الله مع أَبيه قبل الفتح، وشهد حُنينًا والطّائف، وتبوك، والفتح. وفي فتنة قتل عثمان كان على باب الدار وشارك في قتل من جاء لحماية عثمان.

٥ – هاجر مع قومه إلى البصرة في عهد عمر، وكان من الثائرين على عثمان وقتلته، وذلك بعد أن وضعه عثمان تحت الإقامة الجبرية في البصرة ومنعه من مغادرتها لطيشٍ كان فيه، فحقد عليه واستجاب لفتنة ابن سبأ.

٦ – من قبيلة يمنية، كان أول مشاهده الحربية في اليرموك، وفيها فقد إحدى عينيه، ثم شارك في مواقف الفتنة، وقيل إنه استجاب لعليٍّ في الانصراف عن دار عثمان وغادر الحصار قبل مقتل عثمان.

وقدْ كانوا أَثاروا فتنةً[1]، فأخرجَهم عثمانُ بالاجتهادِ، وصاروا في جماعتِهم عندَ مُعاوِيَةَ، فذكَّرَهم باللهِ وبالتقوى لفسادِ الحالِ وهتكِ حُرمةِ الأمَّةِ، حتى قال له زَيدُ بنُ صُوحان[2] - فيما يُروَى: «كمْ تُكْثِرُ علينا بالإمْرةِ وبقريشٍ، فما زالتِ العربُ تأكلُ من قوائمِ سيوفِها وقريشٌ تأكلُ مِنْ متاجِرِها». فقال له مُعاوِيَة: «لا أُمَّ لكَ، أُذَكِّر بالإسلامِ وتُذَكِّرني بالجاهليةِ! قبَّحَ اللهُ مَنْ كَثَّرَ على أميرِ المؤمنين بكُم، فما أنتم ممَّن يَنفَعُ أو يَضُرُّ، اخْرجُوا عَنِّي».

وأخْبَرَه ابنُ الكَوَّاءِ[3] بأهلِ الفتنةِ في كلِّ بلدٍ ومؤامرتِهم، فكَتَبَ إلى عثمانَ يُخبِرُه بذلك، فأرسلَ إليه بأشخاصِهم إليه. فأَخْرجَهم مُعاوِيَةُ، فمَرُّوا بعبدِ الرحمنِ بنِ خالدِ بنِ الوليدِ[4]، فحَبَسَهم ووَبَّخَهم

---

١ – ضربوا عبد الرحمن بن خنيس الأسدي وأباه وهم في دار الإمارة بالكوفة، فكتب أشراف الكوفة وصلحاؤها إلى عثمان بإخراجهم إلى بلد آخر، فسيَّرهم إلى معاويةَ في الشام.

٢ – كان من أصحاب عليّ وقتل يوم الجمل، أخو صعصعة بن صوحان، ولهما أخ ثالث اسمه سيحان، ويعرفون بأبناء صوحان.

٣ – عبد الله بن عمرو من بني يشكر: كان ناسباً من أصحاب عليٍّ.

٤ – عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي القرشي (٣ ق هـ – ٤٦ هـ): من صغار الصحابة، وهو من أبناء الصحابي والقائد العسكري المسلم خالد بن الوليد. اشترك في معركة اليرموك، وكان على كردوس من كراديس وهو

وقال لهم: «اذكُرُوا ما كنتم تَذكُرون لمُعاوِيَة». وحَصَرَهم وأَمْشاهم بينَ يديْهِ أَذِلَّاءَ حتى تابوا بعدَ حَوْلٍ[1].

وكَتَبَ إلى عثمانَ بِخَبَرِهم، فكَتَبَ إليه أنْ سَرِّحْهم إليَّ. فلما مَثُلُوا[2] بينَ يديْهِ جَدَّدوا التوبةَ، وحَلَفوا على صِدْقِهم، وتَبَرَّأوا مما نُسِبَ إليهم. فخَيَّرَهم حيثُ يَسيرون، فاختارَ كُلُّ واحدٍ ما أرادَ مِنَ البلادِ: كوفةً وبَصْرةً ومِصْرَ، فأَخْرَجَهم. فما اسْتَقَرُّوا حيثُما سارُوا حتى ثارُوا وأَلَّبُوا، حتى انضافَ إليهم جَمْعٌ. وسارُوا إليه[3]: على أهلِ مصرَ عبدُ الرحمنِ بنُ عُدَيْسٍ البَلَويِّ[4]. وعلى أهلِ البَصْرةِ حكيمُ

ابن ثماني عشرة. سكن حمص، وكان يستعمله معاوية بن أبي سفيان على غزو الروم في خلافة عمر بن الخطاب. ولاه عثمان بن عفان ولاية حمص، وكان معه لواء معاوية يوم صفين. مات عبد الرحمن سنة ست وأربعين، قتله ابن أثال النصراني بالسم بحمص.

١ – يعني تظاهروا بالتوبة.

٢ – وقفوا.

٣ – تجمعوا وتوجهوا لعثمان لحصاره.

٤ – اشترك في فتنة مقتل عثمان، قال الطبري :لديه ميل إلى الرئاسة، وهو قائد على إحدى الفرق الأربع التي خرجت من مصر إلى المدينة وكان عبد الرحمن بن عديس في مدة الحصار شديد الوطأة على عثمان وأهل بيته، ثم كانت عاقبته القتل في جبل الجليل بالقرب من حمص، لقيه أحد الأعراب، فلما اعترف له أنه مِنْ قتلة عثمان بادر بقتله.

بنُ جَبَلَةَ[1]، وعلى أهلِ الكوفةِ الأَشْترُ مالكُ بنُ الحارثِ النَّخْعِيِّ[2]. فدَخَلُوا المدينةَ هلالَ ذي القِعْدةِ سنةَ خَمْسٍ وثَلاثين.

فاسْتَقْبَلَهُم عُثْمانُ. فقالوا: ادْعُ بالمصْحَفِ. فدعا به، فقالوا: افْتَحِ التاسِعةَ - يَعْني سُورةَ يونُسَ - فقالوا: اقْرَأْ. فقَرَأَ حتى انتَهى إلى قولِه {آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ} قالوا له: قِفْ: أرأيتَ ما حَمَيْتَ مِنَ الحِمَى، أَذِنَ اللّهُ لكَ أمْ على اللّهِ افْتَرَيْتَ؟ قال: امْضِه، إنما نَزَلَتْ في كذا، وقدْ حَمَى عُمَرُ، وزادتِ الإبلُ فزِدْتُ. فجَعَلوا يَتْبَعُونه هكذا، وهو ظاهرٌ[3] عليهم. حتى قال لهم: ماذا تريدون؟ فأَخَذوا ميثاقَه، وكَتَبوا عليه سِتًّا أو خَمْساً: أنَّ المنْفِيَّ يُعادُ والمحرومَ يُعْطى، ويُوَفِّرَ الفَيءَ، ويَعْدِلَ في القَسْمِ، ويَسْتعملَ ذا الأمانةِ والقوةِ. فكَتَبوا ذلك في كتابٍ. وأَخَذَ عليهم ألا يَشُقُّوا عَصاً ولا يُفرِّقوا جَماعةً. ثم رَجَعوا راضِينَ.

---

١ - حُكَيْم بن جَبَلة العَبْدي: من بني عبد القيس. أحد المنتفضين ضد عائشة حين جاءت إلى البصرة، حيث هب ومعه جمع من سبعمئة فارس. هاجر مع قومه إلى البصرة في عهد عمر بن الخطاب، وكان من جملة الثائرين على عثمان وقتلته، وذلك بعد أن وضعه عثمان تحت الإقامة الجبرية في البصرة ومنعه من مغادرتها. قتل في الأحداث التي سبقت موقعة الجمل.

٢ - تقدمت ترجمته.

٣ - منتصر.

وقيلَ أَرْسَلَ إليهم عَليًّا فاتَّفَقوا على الخَمْسِ المذْكورةِ، ورَجَعُوا راضِينَ. فبينما هم كذلك، إذا راكبٌ يَتعَرَّضُ لهم. ثم يُفَرِّقُهم مِراراً، قالوا: ما لَكَ؟ قال: أنا رسولُ أميرِ المؤمنينَ إلى عامِلِه بمِصْرَ[1]. ففَتَّشُوه، فإذا هم بالكتابِ على لسانِ عُثمانَ عليه خاتَمُه إلى عاملِ مصرَ أنْ يَصْلبَهم ويَقْطَعَ أيديَهم وأَرْجُلَهم.

فأَقْبَلوا حتى قَدِموا المدينةَ، فأَتَوْا عَليًّا فقالوا له: ألَمْ تَرَ إلى عَدُوِّ اللهِ! كَتَبَ فينا بكذا، وقدْ أَحَلَّ اللهُ دَمَه، قالوا له: فقُمْ معنا إليه، قال: والله لا أقومُ معكم، قالوا: فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال: والله ما كتبتُ إليكم[2]، فنَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ، وخَرَجَ عليٌّ مِنَ المدينةِ. فانطَلَقُوا إلى عثمانَ فقالُوا له: كَتَبْتَ فينا كذا! قال لهم: إمَّا أنْ تُقيموا اثنينِ مِن المسلمينَ[3]، أو يَمِيني - كما تقدَّمَ ذِكْرُه - فلم يَقْبَلُوا ذلك منه[4]، ونَقَضُوا عهدَه وحَصَرُوه.

---

١ – قصة ظاهرة التلفيق، فمتى كان عامل الخليفة يفصح عما يحمله من أسرار بهذه السذاجة.

٢ – وهذا دليل على أن اليد التي زورت الكتاب على عثمان هي اليد التي زورت على عليٍّ كتاباً إلى الثوار العراقيين بأن يعودوا.

٣ – يعني للشهادة.

٤ – لأنهم ما جاءوا ليقبلوا حقاً أو يَرجعوا إلى شرع، وإنما جاءوا ليخلعوه أو يسفكوه دمه.

وقدْ رُوِيَ أنَّ عثمانَ جِيءَ إليه بالأشْتَرِ[1]، فقال له: يُريدُ القومُ منكَ إمَّا أنْ تَخْلَعَ نَفْسَكَ أو تَقُصَّ منها، أو يَقْتلوكَ! فقال: أمَّا خَلْعي فلا أَتْرُكُ أمَّةَ محمدٍ بعضَها على بعضٍ، وأمَّا القِصاصُ فصاحِبايَ قَبْلي[2] لم يَقُصَّا مِنْ أَنْفُسِهما، ولا يَحْتَمِلُ ذلك بَدَني[3].

ولقدْ دَخَلَ عليه ابنُ عُمَرَ، فقال له عثمانُ: انظرْ ما يقولُ هؤلاءِ، يقولونَ: اخْلَعْ نفسَك أو نَقْتُلَكَ، قال له ابنُ عُمَر: أُمُخَلَّدٌ أنتَ في الدُّنيا؟ قال: لا. قال: هل يَزيدون على أنْ يَقْتلوكَ؟ قال: لا. قال: هلْ يَمْلِكون لكَ جَنَّةً أو

---

١ – في مصنَّف ابن أبي شيبة (٣٨٨٠٩): فَقَالَ عثمان: يَا أَشْتَرُ، مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنِّي، قَالَ: ثَلاَثٌ لَيْسَ مِنْ إِحْدَاهُنَّ بُد، يُخَيِّرُونَك بَيْنَ أَنْ تَخْلَعَ لَهُمْ أَمْرَهُمْ، فَتَقُولُ: هَذَا أَمْرُكُمْ فَاخْتَارُوا لَهُ مَنْ شِئْتُمْ، وَبَيْنَ أَنْ تُقِصَّ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنْ أَبَيْت هَاتَيْنِ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَاتِلُوك، قَالَ: مَا مِنْ إِحْدَاهُنَّ بُدٌّ، قَالَ: مَا مِنْ إِحْدَاهُنَّ بُدٌّ، فَقَالَ: أَمَّا أَنْ أَخْلَعَ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَمَا كُنْت لأَخْلَعَ لَهُمْ سِرْبَالاً سَرْبَلَنِيهِ اللَّهُ أَبَدًا، قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: وَقَالَ غَيْرُ الْحَسَنِ: لأَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَخْلَعَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: وَهَذِهِ أَشْبَهُ بِكَلاَمِهِ، وأما أَنْ أَقُصَّ لَهُمْ مِنْ نَفْسِي، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْت أَنَّ صَاحِبَيَّ بَيْنَ يَدَيَّ كَانَا يَقُصَّانِ مِنْ أَنْفُسِهِمَا، وَمَا يَقُومُ بَدَنِي بِالْقِصَاصِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْتُلُونِي , فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلُونِي لاَ يَتَحَابُّونَ بَعْدِي أَبَدًا، وَلاَ يُقَاتِلُونَ بَعْدِي جَمِيعًا عَدُوًّا أَبَدًا، فَقَامَ الأَشْتَرُ فَانْطَلَقَ، فَمَكَثْنَا فَقُلْنَا: لَعَلَّ النَّاسَ، ثُمَّ جَاءَ رُوَيْجِلٌ كَأَنَّهُ ذِئْبٌ، فَاطَّلَعَ مِنَ الْبَابِ ثُمَّ رَجَعَ، ثُمَّ جَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فِي ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً حَتَّى انْتَهَى إِلَى عُثْمَانَ فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، فَقَالَ بِهَا حَتَّى سَمِعْتُ وَقْعَ أَضْرَاسِهِ، وَقَالَ: مَا أَغْنَى عَنْك مُعَاوِيَةُ، مَا أَغْنَى عَنْك ابْنُ عَامِرٍ، مَا أَغْنَتْ عَنْك كُتُبُك، فَقَالَ: أَرْسِلْ لِي لِحْيَتِي يَا ابْنَ أَخِي، أَرْسِلْ لِي لِحْيَتِي يَا أَخِي، قَالَ: فرَأَيْته اسْتَعْدَى رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ يُعِينه فَقَامَ إِلَيْهِ بِمِشْقَصٍ حَتَّى وَجَأَ بِهِ فِي رَأْسِهِ فَأُثْبِتَ، ثُمَّ مه؟، قَالَ: ثُمَّ دَخَلُوا عَلَيْهِ وَاللَّهِ حَتَّى قَتَلُوهُ.

٢ – أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

٣ – كان في الثانية والثمانين لما قتلوه رضي الله عنه.

ناراً؟ قال: لا. قال: فلا تَخْلَعْ قميصَ اللهِ عنكَ، فتكونَ سُنَّةً، كلَّما كَرِهَ قومٌ خَليفَتَهم خَلَعوه أو قَتَلوه[1].

وقدْ أَشْرَفَ عليهم عثمانُ[2]، واحْتَجَّ عليهم بالحديثِ الصحيحِ في بُنْيانِ المسْجِدِ وحَفْرِ بِئْرِ رُومَةَ، وقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حينَ رَجَفَ بهمْ أُحُدٌ[3]. وأَقَرُّوا له به في أشياءَ ذَكَرَها[4].

---

١ – البلاذري – أنساب الأشراف (٥: ٧٦).

٢ – اطلع عليهم من سطح بيته مخاطباً.

٣ – من فضائل عثمان أنه قام بتوسعة المسجد بعد أن اشترى المنازل المحيطة به وضمها إليه. وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة في أكثر من مرة، من ذلك ما ذكره البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عثمان حين حوصر أشرف على الناس فقال: أنشدكم بالله! ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزتُهم؟ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من حفر بئر رومة فله الجنة؟ فحفرتُها، فصدقوه بما قال. وقد شهد له الرسول ﷺ بالشهادة فقد روى البخاري أن النبي ﷺ صعد أُحُداً وأبو بكر وعمرُ وعثمانُ، فرجف بهم، فقال: اثبت أُحُد فإنما عليك نبيٌّ وصدّيقٌ وشهيدان.

٤ – في مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٨١٣): عن أبي لَيْلَى الْكِنْدِيَّ قال: رَأَيْتُ عُثْمَانَ اطَّلَعَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ مَحْصُورٌ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَقْتُلُونِي وَاسْتَعْتِبُونِي، فَوَاللهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُونِي لاَ تُقَاتِلُونَ جَمِيعًا أَبَدًا وَلاَ تُجَاهِدُونَ عَدُوًّا أَبَدًا، وَلَتَخْتَلِفُنَّ حَتَّى تَصِيرُوا هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ: {وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} قَالَ: وَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: الْكَفُّ الْكَفُّ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ لَكَ فِي الْحُجَّةِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ.

وقدْ ثَبَتَ أنَّ عثمانَ أشرفَ عليهم[1] وقال: أفيكُم ابنا محدوج[2]؟ أنشدُكُما اللهَ ألستُما تعلمانِ أنَّ عُمَرَ قال: إنَّ ربيعةَ فاجِرٌ أو غادِرٌ وإني واللهِ لا أجعلُ فرائضَهم وفرائضَ قومٍ جاءوا مِنْ مسيرةِ شهرٍ، وإنَّما مُهْرُ أحدِهم عندَ طنبه، وإني زدتُهم في غَزاةٍ واحدةٍ خَمْسَمائةٍ، حتى أَلْحَقْتُهم بهم؟ قالوا: بلى. قال: أذكِّركُما اللهَ ألسْتُما تَعْلمانِ أَنَّكُمَا أَتَيْتُمَانِي فَقُلْتُمَا: إِنَّ كِنْدَةَ أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَأَنَّ رَبِيعَةَ هُمَ الرَّأْسُ، وَأَنَّ الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ قَدْ أَكَلَهُمْ فنَزَعْتُه[3] واسْتَعْمَلْتُكما؟ قالا: بلى. قال: اللَّهُمَّ إِنْ كَانُوا كَفَرُوا مَعْرُوفِي وَبَدَّلُوا نِعْمَتِي فَلاَ تُرْضِهِمْ عَنْ إِمَامٍ وَلاَ تُرْضِ إِماماً عَنْهُمْ.[4]

---

١ – اطلع عليهم من سطح داره.

٢ – حسّان بن محدوج بن بشر بن حوط بن سعنة بن ربيعة بن عبّودة بن مالك بن الأعور، كان معه لواء بكر بن وائل يوم الجمل، فقُتل؛ فأخذه أخوه حذيفة بن محدوج فأصيب.

٣ – في جميع الطبعات: فنزعه، وهو خطأ.

٤ – في مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٨٢١): أَشْرَفَ عَلَيْنَا عُثْمَان مِنْ كُوَّةٍ وَهُوَ مَحْصُورٌ، فَقَالَ: أَفِيكُمَ ابْنا محدوج، فَلَمْ يَكُونَا ثَمَّ، كَانَا نَائِمَيْنِ، فَأُوقِظَا فَجَاءَا، فَقَالَ لَهُمَا عُثْمَان: أُذَكِّرُكُمَا اللَّهَ، أَلَسْتُمَا تَعْلَمَانِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ: إِنَّمَا رَبِيعَةُ فَاجِرٌ، أَوْ غَادِرٌ، فَإِنِّي وَاللهِ لاَ أَجْعَلُ فَرَائِضَهُمْ وَفَرَائِضَ قَوْمٍ جَاؤُوا مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، فَهَاجَرَ أَحَدُهُمْ عِنْدَ طَنَبِهِ، ثُمَّ زِدْتهمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ خَمْسَمِئَةٍ خَمْسَمِئَةٍ، حَتَّى أَلْحَقْتهمْ بِهِمْ، قَالاَ: بَلَى....

دعوة عثمان للصحابة بالانصراف

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وقد رَوَى عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ قال: كنتُ مع عثمانَ في الدارِ فقال: أَعْزِمُ على كلِّ مَنْ رَأَى أنَّ عليه سَمْعاً وطاعةً إلا كَفَّ يَدَه وسلاحَه. ثم قال: قمْ يابنَ عُمَرَ - وعلى ابنِ عُمَرَ سيفُه مُتَقَلِّداً[1] - فأخبِرْ به الناسَ. فخَرَجَ ابنُ عُمَر والحَسَنُ بنُ عليٍّ. ودَخَلوا فقَتَلوه[2].

وجاء زيدُ بنُ ثابتٍ فقال له: إنَّ هؤلاءِ الأنصارَ بالبابِ يقولون: إنْ شِئْتَ كُنّا أنصارَ اللهِ مرتين[3]. قال عثمانُ: لا حاجةَ لي في ذلك، كُفُّوا.

وقال له أبو هريرةَ: اليومَ طابَ الضَّرْبُ معكَ. قال: عزمتُ عليكَ لَتَخْرُجَنَّ.

---

١ – لم يلبس ابن عمر سلاحه إلا يوم الدار في خلافة عثمان، ويوم أراد نجدةُ الحروريُّ أن يدخل المدينة مع الخوارج أيام عبد الله بن الزبير.

٢ – يعني البغاة، بعدما خرج ابن عمر والحسن وعبد الله بن الزبير. وكان آخر من خرج عبد الله بن الزبير عندما أمره عثمان أن يصير إلى أبيه بوصيته التي كتبها استعداداً للموت، أمره أن يأتي أهل الدار (أي المدافعين عنه) فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم. فخرج عبد الله بن الزبير آخرهم، فما زال يدعى بها ويحدث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه، وإنما أوصى عثمان إلى الزبير لأن الزبير كان محل الثقة من كبار الصحابة.

٣ – يعني كما كنا مع النبي ﷺ نكون معك.

وكان الحَسَنُ بنُ عليٍّ آخرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ عندِه، فإنه جاء الحَسَنُ والحُسَيْنُ وابنُ عُمَرَ وابنُ الزُّبَيْرِ ومَرْوانُ، فعَزَمَ عليهم في وضعَ سلاحِهم وخروجِهم ولزومِ بيوتِهم.

فقال له ابنُ الزُّبَيْرِ ومروانُ: نحن نَعْزِمُ على أنفسِنا لا نَبْرَحُ. ففَتَحَ عثمانُ البابَ[1]. ودخلوا عليه في أصحِّ الأقوالِ. فقَتَلَه المرءُ الأسودُ.

جريمة مقتل عثمان

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وقيل: أَخَذَ ابنُ أبي بكرٍ[2] بِلِحْيَتِه، وذَبَحَه كِنانةُ[3]، وقيل: رجلٌ مِنْ أهلِ مصرَ يُقالُ له حمارٌ، فسَقَطَتْ قَطرةٌ مِنْ دَمِه على المصْحِفِ على قوله {فَسَيَكْفِيكَهُمُ} فإنَها فيه، ما حُكَّتْ إلى الآنِ.

---

١ – لأنه كان يكره الفتنة، ويتقي الله في دماء المسلمين.

٢ – عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان معهم، وقد ورد أنه لما دخل على عثمان رضى الله عنه وعظه عثمان فخرج وتركه. روى ذلك ابن كثير، وقال الألباني: (الروايات التي وردت في اتهام محمد بن أبي بكر الصديق في قتل عثمان رضى الله عنه لم يصح منها إلا أنه دخل عليه فوعظه عثمان رضى الله عنه، فخرج وتركه، وهذه الرواية التي رواها ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب بإسناد حسن).

٣ – هو كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي قائد إحدى الفرق المصرية الأربع وكان قبل ذلك أحد الذين التفوا بعمار بن ياسر في الفسطاط ليجعلوه سبئياً، وهو أول داخل إلى دار عثمان بالشعلة من النفط ليحرق باب الدار، وهو الذي اخترط السيف ليضعه في بطن أمير المؤمنين، فوقته زوجته نائلة فقطع يدها واتكأ بالسيف عليه في صدره،

ورُوِيَ أنَّ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالتْ: «غضِبتُ لكم مِنَ السَّوطِ ولا أغْضَبُ لعثمانَ مِنَ السَّيْفِ؟! اسْتَعْتَبْتُمُوه حتى إذا تركتُموه كالقَنْدِ المصَفّى[1]، ومَصْتُمُوه مَوْصَ الإناءِ[2]، وتَرَكْتُمُوه كالثَّوْبِ المنَقَّى مِنَ الدَّنَسِ ثم قَتَلْتُمُوه».

قال مَسْروقٌ[3]: فقلتُ لها: «هذا عمَلُكِ، كَتَبْتِ إلى الناسِ تَأْمرينَهم بالخروجِ عليه». فقالتْ عائشَةُ: «والذِي آمَنَ به المؤمنونَ وكَفَرَ به الكافرونَ ما كَتَبْتُ إليهم سَوَاداً في بَياضٍ». قال الأعْمَشُ[4]: فكانوا يَرَوْنَ أنه كُتِبَ على لسانِها[5].

وكانت عاقبة التجيبي القتل مخذولاً في المعركة التي نشبت في مصر بين محمد بن أبي بكر وعمرو بن العاص سنة ٣٨.

١ – القنْد المصفّى: عصير قصب السكر.

٢ – يعني غسلتموه كما يغسل الإناء.

٣ – أبو عائشة مسروق بن الأجدع الوادعي المتوفى سنة ٦٢ هـ، تابعي ومفتي كوفي، وأحد رواة الحديث النبوي. وقد لزم مسروق أمَّ المؤمنين وكان منها مُقرّبًا، حتى أنها قالت له: يا مسروق إنك من ولدي، وإنك لمن أحبهم إليَّ. كما أنه من حُبه لها تكنّى بأبي عائشة.

٤ – سليمان بن مهران الأعمش أبو محمد الأسدي الكاهلي تابعي من حفَّاظ الحديث النبوي، ومُحدّث من الثقات، لقَّبه شمس الدين الذهبي بـ "شيخ المحدّثين"، وعاش الأعمش في الكوفة، وكان محدثها في زمانه. أدرك الأعمش جماعة من الصحابة، وعاصرهم ورأى أنس بن مالك، وسمعه.

٥ – الطبري ٥: ١٦٥ –١٦٦

وقد رُوِيَ أنه ما قَتَلَه أحدٌ إلا أعلاجٌ[1] مِنْ أهلِ مِصْرَ.

براءة الصحابة من التفريط في حق عثمان

قال القاضِي أبو بَكْرٍ رَضِيَ الله عنه: فهذا أَشْبَهُ ما رُوِيَ في البابِ، وبه يَتَبَيَّنُ أنَّ أَحداً مِنَ الصحابةِ لم يَسْعَ عليه ولا قَعَدَ عنه[2]. ولو اسْتَنْصَرَ ما غَلَبَ ألفٌ أو أربعةُ آلافٍ غرباءُ عشرينَ ألفاً مِنْ أهلِ المدينةِ أو أكثرَ مِنْ ذلك، ولكنه أَلْقَى بِيَدِه إلى المصِيبَةِ[3].

وقدِ اخْتَلَفَ العلماءُ فيمن نَزَلَ به مثلُها: هل يُلْقي بِيَدِهِ أو يَسْتَنْصِرُ؟ وأَجاز بعضُهم أنْ يَسْتَسْلِمَ ويُلْقي بِيَدِهِ اقتداءً بفِعْلِ عثمانَ وبتوْصِيةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بذلك في الفتْنَةِ.

---

١ – أعلاج: من غير العرب.

٢ – المقصود عثمان رضي الله عنه.

٣ – يعني استسلم لقضاء الله؛ لأنه اختار بذلك أَهْوَنَ الشَّرين فآثر التضحية بنفسه على توسيع دائرة الفتنة وسفك دماء المسلمين.

وأمْرُ عثمانَ كلُّه سُنَّةٌ ماضِيةٌ وسِيرةٌ راضِيةٌ. فإنَّه تَحَقَّقَ أنه مقتولٌ بخَبَرِ الصادقِ له بذلك، وأنَّه بَشَّرَه بالجنَّةِ على بلْوَى تُصيبُه، وأنه شهيد[1].

ورُوِيَ أنه قال له في المنامِ: إنْ شِئْتَ نَصَرْتُك، أو تُفْطِرَ عندنا الليلةَ[2].

وقد انْتُدِبَتِ الْمَرَدَةُ والجَهَلَةُ إلى أنْ يقولوا: إنَّ كلَّ فاضلٍ مِنَ الصحابةِ كان عليه[3] مَشاغِباً مُؤلِّباً، وبما جَرَى عليه راضياً. واخْتَرعوا كتاباً فيه فصاحةٌ وأمثالٌ كَتَبَ عثمانُ به مُسْتَصْرِخاً إلى عَلِيٍّ. وذلك كلُّه مصنوعٌ ليوغِروا قلوبَ المسلمينَ على السَّلَفِ الماضِينَ والخُلَفاءِ الراشِدينَ.

قال القاضِي أبو بكرٍ: فالذي يُنْخَلُ[4] مِنْ ذلك أنَّ عثمانَ مظلومٌ، محجوجٌ بغيرِ حُجَّةٍ، وأنَّ الصحابةَ بَراءٌ مِنْ دَمِهِ بأَجْمَعِهم، لأنَّهم أَتَوا إرادَتَه وسَلَّمَوا له رأيَه في إسلامِ نفسِه.

---

١ – روى البخاري أن النبي ﷺ صعد أُحُداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: اثبت أُحُد فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان.

٢ – قال أبو سعيد مولى عثمان: إن عثمان أعتق عشرين مملوكاً (يعني عندما أيقن أنه مقتول)، ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ البارحة في المنام ورأيت أبا بكر وعمر فقالوا لي: (اصبر فإنك تفطر عندنا الليلة). البداية والنهاية (٧: ١٨٢ – ١٨٣)

٣ – يعني على عثمان؟

٤ – يعني يُستنتَج.

والطريقُ الثاني طريقُ علماءِ التاريخ، وهو أنْ يَعْرِضوا كلَّ خبرٍ على سجايا[1] مَنْ يُخْبِرُ عنه، ويقارِنُوه بِسيرَتِه، وهل هو مما يُنْتَظَرُ وقوعُه ممَّن نُسِبَ إليه ويُلائمُ المعروفَ مِنْ سابقَتِه وأخْلاقِه أم لا. وتَمْحيصُ تاريخِنا يحتاجُ إلى هاتينِ الطريقتينِ معاً يقومُ بهما علماءٌ راسِخونَ فيهما. ولقدْ ثَبَتَ - زائداً إلى ما تَقَدَّمَ عنهم - أنَّ عبدَ اللهِ بنِ الزُّبَيْر قال لعثمانَ: إنّا معكَ في الدارِ عصابةً مُسْتَبْصرةً يَنْصُرُ اللهُ بأقلَّ منهم. فائْذَنْ لنا. فقال: أذكر[2] اللهُ رجلاً أراق لي دمَه، أو قال دماً.

وقال سَلِيطُ بنُ أبي سَلِيطٍ[3]: نهانا عثمانُ عنْ قتالِهم، فلو أَذِنَ لنا لضَرَبْناهم حتى نُخْرِجَهم عن أقطارِها[4].

---

١ - أخلاق.

٢ - يعني جعل له ذكراً حسناً بين الناس.

٣ - هاجر أبوه سَلِيط بن عمرو وامرأته أمّ يقظة بنت علقمة، فولدت له هناك سَلِيط بن سَلِيط . وشهد سَلِيط مع أبيه موقعة اليمامة. وكانت عند عمر حُلَّة زائدة عما كسا أصحابَ رسول الله ﷺ، فقال: دلوني على فتى هاجر هو وأبوه، فقالوا: ابنُ عمر. فقال: ابن عمر هُوجِرَ بهِ، فدلوه على سَلِيط بن سَلِيط، فكساهُ إياها.

٤ - يعني المدينة.

وقال عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ: كنتُ مع عثمانَ في الدارِ فقال: أَعْزِمُ على كلِّ مَنْ رَأَى أنَّ لي عليه سَمعاً وطاعةً إلا كَفَّ يَدَه وسلاحَه، فإنَّ أَفْضَلَكم غَناءً[1] مَنْ كَفَّ يَدَه وسِلاحَه.

وثَبَتَ أنَّ الحَسَنَ والحُسَيْنَ وابنَ الزُّبَيْرِ وابنَ عُمَرَ ومَرْوانَ كلهم شاكٍ في السلاحِ[2] حتى دَخَلُوا الدارَ، فقالَ عثمانُ: أَعْزِمُ عليكُم لَمَا رَجَعْتُم فوَضَعْتُم أَسْلِحَتَكم ولَزِمْتُم بُيوتَكم[3].

البيعة لعليٍّ رضي الله عنه

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فلما قَضَى اللهُ مِنْ أمْرِه ما قَضَى ومَضَى في قَدَرِه ما مَضَى، عُلِمَ أنَّ الحقَّ لا يَتْرُكُ الناسَ سُدًى وأنَّ الخَلْقَ بعدَه مُفْتَقِرونَ إلى خَليفةٍ مفروضٍ عليهم النَّظَرُ فيه. ولم يكنْ بعدَ الثلاثةِ كالرابعِ[4] قَدْراً وعِلْماً وتُقىً ودِيناً، فانعَقَدَتْ له البَيْعةُ. ولولا

---

١ – يعني نَفعاً وكفايةً.

٢ – يلبس سلاحه كاملاً استعداداً لكل طارئ.

٣ – قتلوه وأحزنوا عليه المؤمنين. دخل عليٌّ يوماً على بناتِه وهنَّ يمسحنَ عيونَهن فقال: ما لكنَّ تبكين؟ قلن: نبكي على عثمان. فبكى وقال: ابكين. البلاذري – أنساب الأشراف (٥: ١٠٣).

٤ – الثلاثة: أبوبكر وعمر وعثمان والرابع عليٌّ، رضي الله عنهم وعن أصحاب محمد أجمعين.

الإسراعُ بعَقْدِ البيعةِ لعليٍّ لجَرَى على مَنْ بها مِنَ الأوْباشِ ما لا يُرْقَعُ خَرْقُه. ولكنْ عَزَمَ عليه المهاجرون والأنصارُ، ورَأَى ذلك فرْضاً عليه، فانقادَ إليه.

وعَقَدَ له البيعةَ طلحةُ[1]، فقال الناسُ: بايَعَتْ عَلِيًّا يدٌ شَلَّاءُ، واللهِ لا يَتِمُّ هذا الأمرُ.

فإن قيل: بايَعا مُكْرَهين[2]. قلْنا: حاشا للهِ أنْ يُكْرِهَا، لهما ولمن بايَعَهما. ولو كانا مُكْرَهَين ما أَثَّرَ ذلك، لأنَّ واحداً أو اثنينِ تَنْعَقِدُ البَيْعةُ بهما وتَتِمُّ، ومَنْ بايعَ بعدَ ذلكَ فهو لازمٌ له، وهو مُكْرَهٌ على ذلك شرعًا. ولو لم يُبايِعا ما أَثَّرَ ذلك فيهما، ولا في بيعةِ الإمامِ.

---

١ – هو طَلْحَة بن عُبَيْد الله التَّيمي القُرشي (٢٨ ق.هـ – ٣٦ هـ)، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده. قال عنه النبي إنه شهيد يمشي على الأرض فقال: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

أسلم مبكرًا، فكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وهاجر إلى المدينة، وشارك في جميع الغزوات في العصر النبوي إلا غزوة بدر حيث كان بالشام، وكان ممن دافعوا عن النبي في غزوة أُحُد حتى شُلَّت يده، فظل كذلك إلى أن مات. وجعله عمر بن الخطاب في الستة أصحاب الشورى الذين ذكرهم للخلافة بعده، وقال: «هم الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ»، وبعد مقتل عثمان بن عفان خرج إلى البصرة مطالبًا بالقصاص من قتلة عثمان فقُتِلَ في موقعة الجمل.

٢ – يعني طلحة والزبير.

وأمّا مَنْ قال يَدٌ شَلَّاءُ وأمْرٌ لا يَتِمُّ، فذلك ظَنٌّ مِنَ القائلِ أنَّ طَلْحةَ أولُّ مَنْ بايَعَ، ولم يكنْ كذلك.

فإنْ قيل: فقدْ قال طَلْحَةُ: «بايعتُ واللُّجُّ[1] على قَفَيَّ». قلْنا: اخْتَرَعَ هذا الحديثَ مَنْ أرادَ أنْ يَجْعَلَ في القفا لُغَةَ قَفَيَّ كما يَجْعلُ في الهوى: هويَّ. وتلك لغةُ هُذَيلٍ لا قُرَيشٍ فكانتْ كِذبةً لم تُدَبَّرْ.

وأمَّا قولُهم «يَدٌ شَلَّاءُ» لو صَحَّ فلا مُتَعَلَّقَ لهم فيه، فإن يداً شُلَّتْ في وِقايةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَتِمُّ لها كُلُّ أمْرٍ، ويُتَوَقَّى بها مِنْ كلِّ مَكروهٍ. وقدْ تمَّ الأمرُ على وجْهِه، ونَفَذَ القَدَرُ بعد ذلك على حُكْمِه، وجَهِلَ المبتدِعُ ذلك فاخْتَرَعَ ما هو حُجَّةٌ عليه.

فإن قيل: بايَعُوه على أنْ يَقْتلَ قَتَلةَ عثمانَ. قلْنا: هذا لا يَصِحُّ في شَرْطِ البَيْعةِ، وإنما يُبايِعونَه على الحُكْمِ بالحقِّ، وهو أنْ يَحْضُرَ الطالبُ للدَّمِ، ويَحْضُرَ المطلوبُ، وتَقَعَ الدَّعوَى، ويكونَ الجوابُ، وتقومَ البيِّنةُ، ويقعَ الحُكْمُ. فأمَّا على الهَجْمِ عليه بما كان مِنْ قولٍ مُطْلَقٍ، أو فِعْلٍ غيرِ مُحَقَّقٍ،

---

١ - السيف

أو سماعِ كلامٍ، فليس ذلك في دِينِ الإسلامِ. قالتِ العُثْمانيَّةُ[1]: تَخَلَّفَ عنه[2] مِنَ الصحابةِ جماعةٌ، منهم سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، ومحمدُ بنُ مَسْلَمَةَ، وابنُ عُمَرَ، وأسامةُ بنُ زَيْدٍ وسواهِم مِنْ نُظَرائهم.

قلْنا: أمَّا بيعتُه فلم يُتَخَلَّفْ عنها. وأما نُصْرَتُه فتَخَلَّفَ عنها قومٌ منهم مَنْ ذَكَرْتم، لأنها كانتْ مسألةً اجتهاديةً، فاجْتَهَدَ كلُّ واحدٍ وأَعْمَلَ نَظَرَه وأصابَ قَدَرَه.

الافتراء على أصحاب الجَمَل وعليٍّ

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: رَوَى قومٌ[3] أنَّ البيعةَ لما تمَّتْ لعليٍّ استأذنَ طلحةُ والزُّبَيْر عليًّا في الخروجِ إلى مكَّةَ. فقال لهما عليٌّ: لعلَّكما تُريدان البصْرةَ والشامَ؟ فأقْسَما ألا يَفْعَلا[4]. وكانتْ عائشةُ بمكَّةَ[5].

---

١ – المطالِبون بالثأر لعثمان.

٢ – عن بيعة عليٍّ.

٣– هذه بداية الافتراءات، يوردها المؤلف، ثم يرد عليها.

٤ – قول عليٍّ لهما وقسَمَهما له من زيادات مزوري التاريخ ورواته.

٥ – لأداء الحج.

وهَرَبَ عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ كُرَيْزٍ عاملُ عثمانَ على البصرةِ إلى مكَّةَ، ويَعْلى بنُ أُميَّةَ عاملُ عثمانَ على اليَمَنِ.

فاجتمعوا بمكَّةَ كلُّهم، ومعهم مَرْوانُ بنُ الحَكَمِ. واجتمعتْ بنو أميَّةَ. وحَرَّضُوا على دَمِ عثمانَ. وأَعْطى يَعْلَى لِطلحةَ والزُّبَيْرِ وعائشةَ أربعمائةَ ألفِ دِرْهمٍ. وأَعْطى لعائشةَ "عَسْكراً" جَمَلاً اشتراهُ باليَمَنِ بمائتيْ دينارٍ. فأرادوا الشامَ، فصدَّهمُ ابنُ عامرٍ وقال: لا مِيعادَ لكم بمُعاوِيَةَ، ولي بالبَصْرةِ صنائعُ، ولكنْ إليها.

فجاءوا إلى ماءِ الحَوْأَبِ[1]، ونَبَحَتْ كِلابُه، فسَأَلتْ عائشةُ فقيل لها: هذا ماءُ الحَوْأَبِ. فرَدَّتْ خِطامَها عنه، وذلك لِمَا سَمِعَتِ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقول «أيتُكُنَّ صاحبةُ الجَمَلِ الأَدْبَبِ[2]، التي تَنْبَحُها كلابُ الحَوْأَبِ؟»[3]

---

١ – مكان بَيْنَ مَكَّةَ والبَصْرة، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَتْهُ عَائِشَةُ لَمَّا جَاءَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي وقْعَة الجَمل.

٢ – كثير الشَّعر.

٣ – روى الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: "لَمَّا بَلَغَتْ عَائِشَةُ بَعْضَ مِيَاهِ بَنِي عَامِرٍ لَيْلًا نَبَحَتِ الْكِلَابُ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَيُّ مَاءٍ هَذَا؟ قَالُوا: مَاءُ الْحَوْأَبِ، فَوَقَفَتْ فَقَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةً، فَقَالَ لَهَا طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ: مَهْلًا رَحِمَكِ اللَّهُ، بَلْ تَقْدَمِينَ، فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ اللَّهُ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةً، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: (كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ)". صححه ابن كثير في "البداية والنهاية" على شرط الشيخين، وكذا صححه محققو المسند، والألباني في "الصحيحة" على شرط الشيخين.

فشَهِدَ طَلْحَةُ والزُّبَيْر أنه ليس هذا ماءَ الحَوْأَبِ، وخمسونَ رجلاً إليهما، وكانتْ أوَّلَ شِهادةِ زُورٍ دارتْ في الإسلامِ[1].

وخَرَجَ عليٌّ إلى الكوفةِ، وتَعَسْكَرَ الفَريقانِ والْتَقَوْا، وقال عَمّارٌ - وقدْ دَنا مِنْ هَوْدَجِ عائشةَ -: ما تَطْلبونَ؟ قالوا: نَطْلُبُ دَمَ عثمانَ.

قال: قَتَلَ اللهُ في هذا اليومِ الباغِيَ والطالبَ بغيرِ الحقِّ.

والْتَقَى عليٌّ والزُّبَيْر، فقال له عليٌّ: أَتَذْكرُ قولَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إنكَ تُقاتِلُني؟ فتَرَكَه ورَجَعَ. وراجَعَه ولَدُه[2] فلمْ يَقْبَلْ. وأَتْبَعَه الأَحْنَفُ[3] مَنْ قَتَلَه.

ونادى عليٌّ طلحةَ مِنْ بَعْدُ: ما تَطْلُبُ؟ قال: دمَ عثمانَ. قال: قاتَلَ اللهُ أَوْلانا بدَمِ عثمانَ. ألم تَسْمعِ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «اللَّهُمَّ والِ

---

١ - هذا الزعم سيردُّ عليه المؤلف بعد قليل وأن هذه الشهادة من طلحة والزبير لم تكن.

٢ - قال عبداللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما: لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ دَعانِي، فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ لا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وإِنِّي لا أُرَانِي إِلَّا سَأُقْتَلُ الْيَومَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي، أَفَتَرَى دَيْنَنَا يُبْقِي مِنْ مالِنا شَيْئًا؟ ثُمَّ قَالَ: يا بُنَيَّ، بِعْ مَالَنَا واقْضِ دَيْنِي.

٣ - الأحنف بن قيس. وهو أتقى لله من أن يأمرهم بقتله.

مَنْ والاهُ، وعادِ مَنْ عاداهُ، وانْصُرْ مَنْ نَصَرَه، واخْذُلْ مَنْ خَذَلَه» وأنتَ أوَّلُ مَنْ بايَعَني ونَكَثَ.

الرد على هذه الافتراءات

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أمَّا خروجُهم إلى البَصْرَةِ فلا إشْكالَ فيه، ولكنْ لأيِّ شيءٍ خَرَجُوا؟ لم يَصَحَّ فيه نَقْلٌ، ولا يُوثَقُ فيه بأحدٍ لأنَّ الثقةَ لم يَنْقِلْه، وكلامُ المتَعَصِّبِ لا يُسْمَعُ. وقدْ دَخَلَ مَعَ[1] المتَعَصِّبِ مَنْ يريدُ الطَّعْنَ في الإسلامِ واستِنْقاصِ الصحابةِ.

فيُحْتَمَلُ أنَّهم[2] خَرَجوا خَلْعاً لعليٍّ لأمرٍ ظَهَرَ لهم[3]، وهو أنَّهم بايَعوا لتَسْكينِ الثائرةِ، ثم قاموا يَطْلُبونَ الحقَّ.

ويُحْتَمَلُ أنَّهم خَرَجوا ليَتَمَكَّنوا مِنْ قَتَلَةِ عثمانَ[4].

---

١ – في نسخة الخطيب على بدل مع، وما أثبتناه هو الصحيح. وقد وجدتها في نسخة دار الجيل.

٢ – المؤلف يذكر احتمالات، من باب التدرج مع الخصوم، ثم ينقضها بعد قليل.

٣ – لم ينقل أحد أن عائشة ومن معها نازعوا علياً في الخلافة، ولا دَعَوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة. الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣ – ٤١: ٤٢).

٤ – قال محب الدين الخطيب: وهذا ما كانوا يذكرونه إلا أنهم يريدون أن يتفقوا مع عليّ على الطريقة التي يتوصلون بها إلى ذلك. وهذا ما كان يسعى به الصحابي المجاهد القعقاع بن عمرو، ورضي به الطرفان كما سيأتي.

ويُمكِنُ أنَّهم خَرَجوا في جَمْعِ طوائفِ المسلمينَ، وضَمِّ نَشْرِهم، ورَدِّهم إلى قانونٍ واحدٍ حتى لا يَضْطَرِبوا فيَقْتَتِلوا. وهذا هو الصحيحُ، لا شيءَ سواهُ، وبذلكَ وَرَدَتْ صِحاحُ الأخْبارِ.

فأمّا الأقْسامُ الأُولى فكلُّها باطِلةٌ وضَعيفةٌ:

أمّا بَيْعتُهم كُرْهاً فباطلٌ قدْ بَيْنَّاه.

وأمّا خَلْعُهم فباطِلٌ، لأنَّ الخَلْعَ لا يكونُ إلا بِنَظَرٍ مِنَ الجميعِ، فيمكِنُ أنْ يُوَلَّى واحدٌ أو اثنانِ، ولا يكون الخَلْعُ إلا بعدَ الإثباتِ والبيانِ.

وأما خُروجُهم في أمْرِ قَتَلَةِ عثمانَ فيَضْعُفُ[1]، لأنَّ الأصلَ قَبْلَه تأليفُ الكلمةِ، ويُمكِنُ أنْ يَجْتَمِعَ الأمرانِ.

ويُرْوَى أنَّ في تَغَيُّبَهم[2] قَطْعَ الشَّغَبَ بينَ الناسِ.

فخَرَجَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرِ وعائشَةُ أمُّ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنهم رَجاءَ أنْ يَرْجِعَ الناسُ إلى أُمِّهم فيَرْعَوْا حُرْمَةَ نَبِيِّهم. واحْتَجُّوا عليها[3] بقولِه تعالى: {لاَّ

---

١ – كلمة (فيضعف) سقطت من نسخة الخطيب، ولا يتم المعنى إلا بها. وقد وجدتها في نسخة دار الجيل.

٢ – أي تغيُّب طلحة والزبير وعائشة عن المدينة.

٣ – على عائشة لما أقنعوها بالخروج إلى البصرة.

خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}. وقدْ خَرَجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في الصُّلْحِ وأَرْسَلَ فيه. فَرَجَتِ الْمَثُوبَةَ، واغْتَنَمَتِ الفُرْصَةَ[1]، وخَرَجَتْ حتى بَلَغَتِ الأَقْضِيةُ مَقاديرَها[2]. وأَحَسَّ بهم أهلُ البَصْرةِ، فحَرَّضَ مَنْ كان بها مِنَ المتألِّبينَ على عثمانَ الناسَ، وقالوا اخْرُجوا إليهم حتى تَرَوْا ما جاءوا إليه.

فبَعَثَ عثمانُ بنُ حنيفٍ[3] حَكيمَ بنَ جَبَلَةَ[4] فلَقِيَ طلحةَ والزُّبَيْرَ بالزابوقةِ[5]، فقُتِلَ حَكيمٌ. ولو خَرَجَ مُسَلِّماً مُسْتسلِماً لا مُدافِعاً[6] لَمَا أصابه شيءٌ. وأيُّ خيرٍ كان له في الْمُدافَعةِ وعَنْ أيِّ شيءٍ كان يُدافِعُ؟ وهُمْ ما جاءوا مقاتِلينَ ولا وُلاةً، وإنَّما جاءوا ساعِينَ في الصُّلْحِ، راغِبينَ في تأليفِ

---

١ – في نسخة الخطيب القصة بدل الفرصة. والمقصود الفرصة إلى الصلح بين المسلمين.

٢ – الأقضية جمع قضاء. والمقصود ما قضاه الله وشاءه.

٣ – عثمان بن حنيف أحد ولاة عليّ بن أبي طالب على البصرة. ولما وصل أصحاب الجمل قريباً من البصرة أرسل إليهم عثمانُ بنُ حنيفٍ عمرانَ بنَ حصينٍ ليعلم له خبرهم، فلما عاد إليه وذكر له حديثه مع أصحاب الجمل قال له عثمان بن حنيف: أشرْ عليَّ يا عمران. فقال له: إني قاعد فاقعد. فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين عليّ، وأشار عليه هشام بن عامر الأنصاري – أحد الصحابة المجاهدين الفاتحين – بأن يسالمهم حتى يأتي أمر عليّ، فأبى عثمان بن حنيف ونادى في الناس، فلبسوا السلاح وخرجوا، فكانت العاقبة فشله وخروج الأمر من يده إلى أيدي أصحاب الجمل. ووقع ابن حنيف في أسر الجماهير فنتفت لحيته. (الطبري ٥ : ١٦١ – ١٧٥).

٤ – حكيم بن جبلة من قتلة أمير المؤمنين عثمان.

٥ – مدينة قريبة من البصرة كانت فيها موقعة الجمل.

٦ – مقاتلاً.

الكَلِمَةِ[1]، فمَنْ خَرَجَ إليهم ودافَعَهم وقاتَلَهم دافَعوا عنْ مَقْصِدِهم، كما يُفْعَلُ في سائرِ الأسْفارِ والمقاصِدِ.

فلمّا وَصَلُوا إلى البَصْرَةِ تَلَقَّاهمُ الناسُ بأعْلى الْمِرْبَدِ[2] مُجْتمِعِينَ، حتى لو رُمِيَ حَجَرٌ ما وَقَعَ إلا على رأسِ إنسانٍ. فتَكَلَّمَ طلْحةُ وتَكَلَّمَ الزُّبَيْر وتَكَلَّمتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها. وكَثُرَ اللَّغَطُ[3] وطلْحةُ يقولُ «أَنْصِتُوا» فجَعَلُوا يَرْكَبونَه ولا يُنصِتُونَ، فقالَ «أُف، أُف. فَرَاشُ نار، وذُبابُ طَمَع». وانْقَلَبُوا على غيرِ بَيانٍ وانْحَدَروا إلى بَني نَهْدٍ[4]، فرَماهمُ الناسُ بالحِجارةِ حتى نَزَلُوا الجَبَلَ[5].

---

١ – قال ابن تيمية في (منهاج السنة): عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين.

٢ – مربد البصرة: كانت تقام فيه سوق الإبل، ثم صارت تكون فيه مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء.

٣ – بين أنصار قادة الجمل وبين أنصار عليٍّ.

٤ – قبيلة نهد بن زيد القضاعية، العراق يعتبر أحد مواطن قبيلة نهد قبل الإسلام إلى مجيء الإسلام، بل وكثير من تاريخ قبيلة نهد قبل الإسلام وفي صدره إلى تاريخ حقبة بني أمية كان مذكورا في العراق.

٥ – يعني قادة الجمل، ولما رأت عائشة ما يفعل أنصار عثمان بن حنيف انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لابن حنيف حتى وقفوا في موضع آخر، ومال بعض الذين كانوا مع ابن حنيف إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان بن حنيف (الطبري: ٥:١٧٥).

والْتَقَى طلْحةُ والزُّبَيْر وعُثمانُ بنُ حنيفٍ - عاملُ عليٍّ على البصْرةِ - وكَتَبُوا بينهم أنْ يَكُفّوا عنِ القتالِ، ولِعُثمانَ[1] دارُ الإمارةِ والمسجدُ وبيتُ المالِ، وأنْ يَنْزِلَ طلحةُ والزُّبَيْر مِنَ البصرةِ حيثُ شاءا، ولا يَعْرِضُ بعضُهم لبعضٍ حتّى يَقْدُمَ عليٌّ.

ورُوِيَ أنَّ حَكيمَ بنَ جَبَلَةَ عارَضَهم حينئذٍ فقُتِلَ بعدَ الصُّلْحِ. وقَدِمَ عليٌّ البَصْرةَ، وتَدانَوَا ليَتَراءَوا، فلمْ يَتْرُكْهم أصحابُ الأَهْواءِ وبادَرُوا بإراقةِ الدِّماءِ. واشْتَجَرتِ الحربُ. وكَثُرَتِ الغَوْغاءُ على البَوْغاءِ[2]؛ كلُّ ذلك حتى لا يَقَعَ بُرْهان، ولا تَقِفَ الحالُ على بَيان، ويَخْفَى قَتَلَةُ عُثْمان، وإنَّ واحدًا في الجيشِ يُفْسِدُ تَدْبيرُه، فكيف بألفٍ!

وقدْ رُوِيَ أنَّ مَرْوانَ لما وقَعَتْ عينُه في الاصْطِفافِ على طلحةَ قال: لا نَطْلُبُ أَثَراً بَعْدَ عَيْنٍ، ورَماهُ بِسَهْمٍ فقَتَلَه[3]. ومَنْ يعلمُ هذا إلا علَّامُ الغُيوبِ، ولم يَنْقِلْه ثَبْتٌ. وقدْ رُوِيَ أنه أصابَه سَهْمٌ بأمرِ مروانَ، لا أنَّه رَماه.

---

١ – ابن حنيف.

٢ – الغوغاء والبوغاء هم رعاع الناس وسِفْلتهم، والعبارة كناية عن الفوضى واختلاط الأمور واضطرابها.

٣ – لماذا يقتله وقد خرج كل منهما في طلب قتلة عثمان ومصلحتهما واحدة؟

وقدْ خَرَجَ كَعْبُ بنُ سَوْرٍ[1] بمُصْحَفٍ مَنْشورٍ بِيَدِهِ يُناشِدُ الناسَ ألّا يُريقُوا دِماءَهم، فأَصابَه سَهْمٌ غَرْبٌ[2] فقَتَلَه. ولعلَّ طَلْحةَ مِثْلُه[3]. ومَعْلومٌ أنَّه عندَ الفتنةِ وفي مَلْحمةِ القتال يَتَمَكَّنُ أُولُو الإحَنِ والحُقودِ مِنْ حَلِّ العُرَى ونَقْضِ العُهودِ. وكانت آجالاً حَضَرَتْ، ومواعيدَ انْتُجِزَتْ[4].

فإنْ قيلَ: لِمَ خَرَجَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها وقدْ قالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لَهُنَّ في حَجَّةِ الوَداعِ: «هذه ثمَّ ظهورَ الحُصْرِ[5]». قلْنا: (حَدِّثْ حَديثَيْنِ امْرَأةْ فإنْ أَبَتْ فأربَعةْ)[6]. يا عُقولَ النِّسْوانِ ألم أعهدْ إليكم ألا تَرْوُوا أحاديثَ

---

١ – كعب بن سور الأزدي أول قضاة المسلمين على البصرة، ولاه أمير المؤمنين عمر.

٢ – حادّ يصيب هدفه.

٣ – أصابه سهم غرب.

٤ – يعني أجل طلحة ومن مات مثله. وقد رأى علي بن أبي طالب طلحةَ مُلقى في بعض الأودية، فنزل فمسح التراب عن وجهه، ثم قال: "عزيز عليَّ أبا محمد أن أراك مجدلًا في الأودية وتحت نجوم السماء. وقال: "ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة". وقال أبو حبيبة مولى طلحة: دخلت أنا وعمران بن طلحة على عليٍّ بعد الجمل، فرحب بعمران وأدناه وقال: "إني لأرجو أن يجعلني الله وإياك من الذين قال فيهم: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} الحافظ ابن عساكر ٨٦:٧-٨٧

٥ – الحصر جمع حصير، ولما حج ﷺ بنسائه قال: "إنما هذه الحجة ثم الْزَمْنَ ظهورَ الحُصر" أي الزمن بيوتكن. وقيل هذه إشارة نبوية إلى أنه ﷺ ينعي لهنَّ نفسَه، وأنَّ هذه آخر حجة له ﷺ وليس فيه أمر منه بألا يزايلن الحصر إلى حج أو مصلحة أو إصلاح بين الناس، فاستشهاد أعداء الصحابة بهذا الحديث على المنع مطلقًا عدَّه القاضي ابن العربي من البهتان؛ لأنه استشهاد به لغير ما أراده النبي ﷺ. رواه أحمد وأبو داود.

٦ – هذا مَثَل عربي، قال أبو عبيد في كتاب الأمثال: ومن أمثالهم في سوء السمع والإجابة: (حدِّثْ حديثينِ امرأةً، فإن لم تفهم فأربعةً) وهذا على سبيل السخرية. وبهذا المعنى أورد ابن العربي هذا المثل ليسخر ممن يرْوون

البُهْتانْ، وقدَّمْنا لكم على صِحَّةِ خُروجِ عائشةَ البُرهانْ[1]، فلِمَ تقولونَ ما لا تَعلَمونَ؟ وتُكرِّرونَ ما وقَعَ الانفصالُ عنه كأنَّكم لا تَفْهمُونَ[2]؟ {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ}.

وأمّا الذي ذَكَرْتُم مِنَ الشهادَةِ على ماءِ الحَوْأَبِ[3]، فقدْ بُؤتُم في ذِكْرِها بأَعْظمِ حَوْبٍ[4]. ما كان قَطُّ شيءٌ كما ذَكَرْتُم، ولا قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ

حديثاً ويفسرونه على غير المراد، إما عمداً وإما جهلاً، فقد استشهدوا بحديث «هذه ثم ظهور الحصر» وأوهموا أن المراد به الأمر بالمنع من الخروج مطلقًا. لذا فقد وصفهم ابن العربي بالنسوان، كهذه المرأة المذكورة في المثل ولا تفهم إذا كررتَ لها الكلام مرتين أو عشر مرات.

١ – لما بعث علي بن أبي طالب عمار بن ياسر والحسن بن علي إلى الكوفة إذ خرجت أم المؤمنين إلى البصرة، فلما أتياها اجتمع إليهما الناس في المسجد، فخطبهم عمار، وذكر لهم خروج عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ثم قال لهم: ((إني أقول لكم، ووالله إني لأعلم أنها زوجة رسول الله كما هي زوجته في الدنيا، ولكن الله ابتلاكم بها لتطيعوها أو لتطيعوه)) فقال له مسروق (ابن الأجدع الهمداني) أو أبو الأسود (الدؤلي): ((يا أبا اليقظان فنحن مع من شهدت له بالجنة دون من لم تشهد له)) فسكت عمار.

٢ – يعني لماذا تعودون إلى ما انتهينا منه ووضحناه بما فيه الكفاية؟

٣ – يعني ما رواه الخصوم من شهادة طلحة والزبير لعائشة بأن هذا ليس ماء الحوأب، لكي يجعلوها تكمل معهم. فهذه الشهادة لم يأت خبر صحيح بأنها كانت.

٤ – يعني رجعتم منها بذنب عظيم واستوجبتم غضب الله عليكم.

ذلكَ الحديثَ[1]، ولا جَرَى ذلكَ الكلامُ، ولا شِهِدَ أحدٌ بشهادَتِهم، وقد كُتِبَتْ شهاداتُكم بهذا الباطلِ وسوفَ تُسألون[2].

الحرب بين عليٍّ ومُعاوِيَة

ودارتِ الحربُ بينَ أهلِ الشامِ وأهلِ العراقِ[3]: هؤلاءِ يَدْعونَ إلى عليٍّ بالبيعةِ وتأليفِ الكلمةِ على الإمامِ، وهؤلاءِ يَدْعونَ إلى التمكينِ منْ قَتَلَةِ عثمانَ ويقولونَ: لا نُبايِعُ مَنْ يُؤْوِي القَتَلَةَ[4]. وعليٌّ يقولُ لا أُمَكِّنُ طالباً مِنْ

---

١ – بل هو حديث صحيح كما سلف.

٢ – "تحقيق علمي لمسألة الحوأب"، كتب الأستاذ محب الدين الخطيب تحت العنوان السابق ما يأتي: وبمناسبة الكلام عن حديث الحوأب، لا بد لنا من التصريح بأن خروج عائشة رضي الله عنها كان اجتهادًا منها لتحقيق غاية طلحة والزبير، والتعاون مع عليٍّ رضي الله عنه من أجل إطفاء الفتنة والقضاء على المنافقين والمفسدين من قتلة عثمان رضي الله عنهم جميعًا.

٣ – عند (صفّين) بقرب الرقة على شاطئ الفرات آخر تخوم العراق وأول أرض الشام.

٤ – لَمَّا انتهى عليٌّ من حرب الجمل وسار من البصرة إلى الكوفة فدخلها يوم الاثنين ١٢ من رجب، أرسل جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية في دمشق يدعوه إلى طاعته. فجمع معاوية رؤوس الصحابة وقادة الجيوش وأعيان أهل الشام واستشارهم فيما يطلب علي، فقالوا: لا نبايعه حتى يقتل قتلة عثمان، أو يسلمهم إلينا. فرجع جرير إلى علي بذلك، فاستخلف علي على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر وخرج منها فعسكر بالنخيلة أول طريق الشام من العراق، وقد أشار عليه ناس بأن يبقى في الكوفة ويبعث غيره إلى الشام فأبى. وبلغ معاوية أن عليا تجهز وخرج بنفسه لقتاله فأشار عليه رجاله أن يخرج هو أيضا بنفسه، فخرج الشاميون نحو الفرات من ناحية صفين، وتقدم علي بجيوشه إلى تلك الجهة. وكان جيش علي في مائة وعشرين ألفا وجيش معاوية في تسعين ألفا، وبدأ القتال في ذي الحجة سنة ٣٦ بمناوشات ومبارزات، ثم تهادنوا في المحرم سنة ٣٧ واستؤنف القتال بعده، وقتل في هذه الحرب سبعون ألفا، وكانت الوقائع ٩٠ وقعة في ١١٠ أيام، وامتازت هذه الحرب بنبل الشجاعة في القتال،

مَطلوبٍ يُنَفِّذُ فيه مُرادَه بغيرِ حُكْمٍ ولا حاكمٍ. ومُعاوِيَة يقولُ: لا نُبايِعُ مُتَّهَماً بقَتْلِه أو قاتِلاً له، وهو أَحَدُ مَنْ يُطْلَبُ فكيفَ نُحَكِّمُه أو نُبايِعُه، وهو خَليفَةُ عداءٍ وتَسَوُّرٍ[1].

وذَكَروا في تفاصيلِ ذلكَ كلماتٍ آلَتْ إلى اسْتِفعالِ رَسائلَ[2] واسْتِخراجِ أقوالٍ وإنشاءِ أشعارٍ وضَرْبِ أمثالٍ تَخْرُجُ عن سيرةِ السَّلَفِ، يُقِرُّها الخَلْفُ ويَنْبُذُها الخَلَفُ[3].

الحق مع عليٍّ

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أمَّا وجودُ الحرْبِ بينَهم فمعلومٌ قطْعاً، وأما كونُه بهذا السببِ فمعلومٌ كذلك قطْعاً[4]، وأمَّا الصوابُ فيه فمَعَ عليٍّ،

ونبل التعامل والاتصال عند التهادن والراحة. ثم كتب التحكيم يوم ١٣ صفر سنة ٣٧ على أن يعلن الحكمان حكمهما في رمضان بدومة الجندل بمكان منها يسمى أذرح.

١ – المؤلف يحكي كلام المفترين ليرد عليه مباشرة.

٢ – أي اختراعها زوراً وكذباً ولا أصل لها.

٣ – الخَلْف بفتح الخاء وسكون اللام: الفاسد الطالح. وفي التنزيل {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى}. والخَلَف بفتح الخاء واللام: اللاحق الصالح. ومنه الحديث "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. وهم علماء الحديث محاربو المبتدعة

٤ – يعني المطالبة بقتلة عثمان.

لأنَّ الطالبَ للدَّمِ لا يَصِحُّ أنْ يُحَكَّمَ، وتُهْمةُ الطالبِ للقاضِي لا توجِبُ عليه أنْ يَخْرَجَ عليه، بلْ يَطْلُبُ الحقَّ عندَه، فإنْ ظَهَرَ له قَضاءٌ وإلا سَكَتَ وَصبَرَ.

والذي يَكْشِفُ الغِطاءَ في ذلكَ أنَّ مُعاوِيَة لَمّا صارَ إليه الأمرُ لم يُمْكِنْه أنْ يَقْتُلَ مِنْ قَتَلَةِ عثمانَ أَحَداً إلا بِحُكْمٍ، إلا مَنْ قُتِلَ في حَرْبٍ بِتَأْويلٍ، أو دُسَّ عليه فيما يقال. حتى انْتَهى الأمرُ إلى زمانِ الحَجَّاجِ، وهمْ يَقْتُلونَ بالتُّهْمَةِ لا بالحقيقةِ. فتَبَيَّنَ لكمْ أنَّهم ما كانوا في مُلْكِهِم يَفْعَلونَ ما أَضْحَوا له يَطْلُبونَ[1].

والذي تَثْلَجُ به صدورُكم أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ في الفِتَنِ وأشارَ وبيَّنَ وأَنذَرَ بالخوارجِ[2] وقالَ «تَقْتُلُهم أَدْنى الطّائفَتينِ إلى الحقِّ»[3].

---

١ – يعني أن المطالبين بدم عثمان لما صار لهم الْمُلك والأمر لم يجدوا دليلاً يُدينون به أحداً من قتلة عثمان إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

٢ – الخوارج جماعة خرجوا على علي بن أبي طالب وصحبه؛ لأنه قبل بالتحكيم قائلين: إن حكم الله واضح لا يحتاج إلى هذا التحكيم، وكان شعارهم: "لا حكم إلا لله"، ويسمون أيضًا بالحرورية نسبة إلى قرية في الكوفة تسمى "حروراء" خرجوا إليها، وقد حاربهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في الوقعة الشهيرة بوقعة "النهروان" وهزمهم، وقتل منهم كثيرًا، ولكنه لم يستطع إبادتهم، حتى دبروا له مكيدة قتله على يد عبد الرحمن بن ملجم.

٣ – في صحيح مسلم (ك١٢ ح١٥٠ ج٣ ص ١١٣) من حديث أبي سعيد الخدري: "تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق".

فبَيَّنَ أنَّ كلَّ طائفةٍ منهما تَتعلَّقُ بالحقِّ، ولكنَّ طائفةَ عليٍّ أدْنى إليه. وقالَ تَعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

فلم يُخْرِجْهم عنِ الإيمانِ بالبَغْيِ بالتأويلِ، ولا سَلَبَهم اسْمَ الأُخُوَّةِ بقولِه بعدَه {إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}.

وقال صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في عَمَّار: «تَقْتُلُه الفئةُ الباغيةُ»[1]. وقال في الحَسَنِ «ابْنِي هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بينَ فِئتَينِ عَظيمَتينِ مِنَ المسلمينَ»، فحَسُنَ له خَلَعُه نفسَه وإصلاحُه.

وكذلكَ يُرْوَى أنَّه أَذِنَ - في الرُّؤيا - لعثمانَ في أنْ يَسْتَسْلِمَ ويُفْطِرَ عندَه الليلةَ.

فهذه كلُّها أمورٌ جَرَتْ على رَسْمِ النِّزاعِ، ولم تَخْرُجْ عنْ طريقٍ مِنْ طُرُقِ الفِقْهِ، ولا عَدَتْ سبيلَ الاجتهادِ الذي يُؤجَرُ فيه الْمُصيبُ عَشَرةً

---

١ - لما كانوا يبنون المسجد، فكان الناس ينقلون لبنة لبنة، وعمار ينقل لبنتين لبنتين، فقال النبي ﷺ فيه هذه الكلمة (كتاب الجهاد والسير من صحيح البخاري).

والمخْطِئُ أَجْراً واحِداً، وما وَقَعَ مِنْ رواياتٍ في كتبِ التاريخِ - عدا ما ذكرْنا - فلا تَلْتَفِتوا إلى حَرْفٍ منها، فإنها كلَّها باطلةٌ.

أقوال كاذبة عن التحكيم

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وقدْ تَحَكَّمَ الناسُ في التحكيمِ[1] فقالوا فيه ما لا يَرْضاهُ اللهُ. وإذا لَحَظْتُمُوه بِعَيْنِ الْمُروءةِ - دُونَ الدِّيانةِ - رأيتمْ أنها سَخافةٌ حَمَلَ على سَطْرِها في الكُتُبِ في الأكثرِ عَدَمُ الدِّين، وفي الأقلِّ جَهْلٌ مَتِين. والذي يَصِحُّ مِنْ ذلكَ ما رَوَى الأئمَّةُ كخَليفةِ بنِ خياطٍ[2]، والدَّارقُطْني[3]: أنه لما خَرَجَ الطائفةُ العراقيةُ في مائةِ ألفٍ

---

١ – المقصود بالتحكيم ما حدث بين الصحابة في زمن علي ومعاوية رضي الله عنهما، بعد أن التقى جيش علي رضي الله عنه مع جيش معاوية في صفين، وحصلت بينهم مقتلة عظيمة، وخارت قوى الجيشين عن مواصلة المعركة، وكاد الجيش العراقي بقيادة علي بن أبي طالب أن ينتصر على الجيش الشامي بقيادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، فأرسل معاوية رجلاً يحمل المصحف إلى علي ويقول له: بيننا وبينكم كتاب الله. فقال علي: أنا أولى بذلك، بيننا كتاب الله.

٢ – الإمام الحافظ أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري البصري أحد أوعية العلم، ومن شيوخ الإمام البخاري. قال عنه ابن عدي: هو صدوق مستقيم الحديث من متيقظي رواة السنة. (له كتاب "تاريخ ابن خياط"، وقد أكرمني الله بخدمته وإعادة نشره على موقع نور وموقع فولة بوك).

٣ – الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (٣٠٦ – ٣٨٥هـ) كان مع جلالته في الحديث من أئمة فقهاء الشافعية، وله تقدم في الأدب ورواية الشعر. وجاء من بغداد إلى مصر ليساعد ابن خنزابة وزير كافور على

والشاميةُ[1] في سبعينَ أو تسعينَ ألفاً ونزلوا على الفُراتِ بصِفِّينَ، اقْتَتَلُوا في أوَّلِ يومٍ وهو الثلاثاءُ على الماءِ[2]، فغَلَبَ أهلُ العراقِ عليه.

ثم الْتَقَوا يومَ الأربعاءِ لسَبْعٍ خَلَوْنَ مِنْ صَفَرٍ سنةَ سبعٍ وثلاثينَ ويومَ الخميسِ ويومَ الجُمُعةِ وليلةَ السبتِ.

ورُفِعَتِ المصاحِفُ مِنْ أهلِ الشامِ ودَعَوْا إلى الصُّلْحِ[3].

تأليف مسنده فبالغ الوزير في إجلاله. قال الحافظ عبد الغني بن سعيد: (أحسن الناس كلامًا على حديث رسول الله ثلاثة: عليّ بن المديني في وقته، وموسى بن هارون القيسي في وقته، والدارقطني في وقته).

١ – العراقية عليّ وجيشه والشامية معاوية وجيشه.

٢ – يعني ماء الفرات، ولم تكن الحرب على الماء جدية؛ فقد قال عمرو بن العاص يومئذ "ليس من الإنصاف أن نكون ريانين وهم عطاش"، فلم تكن نية أحد منهم حرمان الآخر من الماء.

٣ – عندما تسلم الخليفة الرابع علي بن أبي طالب الحكم، امتنع معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام عن مبايعته خليفة للمسلمين حتى يقتص من قتلة الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فأرسل علي بن أبي طالب، جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية بن أبي سفيان يدعوه للمبايعة، وعندما قدم جرير إلى الشام، استشار معاوية عمرو بن العاص السهمي، فأشار إليه بجمع أهل الشام والخروج نحو العراق للمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان بن عفان.

المعركة

اليوم الأول الأربعاء ١ صفر ٣٧ هـ:

أخرج علي بن أبي طالب في اليوم الأول الأشتر النخعي على رأس مجموعة كبيرة من الجيش، وأخرج معاوية بن أبي سفيان حبيبَ بن مسلمة مع مجموعة كبيرة من جيشه، ودارت الحرب بين الفريقين بشدة منذ الصباح وحتى المغرب، وقُتل الكثير من الفريقين، وكان قتالا متكافئًا.

اليوم الثاني الخميس ٢ صفر ٣٧ هـ:

وفي اليوم التالي، أخرج علي بن أبي طالب هاشم بن عتبة بن أبي وقاص أحد المجاهدين الذين لمعت أسماؤهم كثيرًا في فتوح فارس والروم، وأخرج معاوية بن أبي سفيان أبا الأعور السلمي، ودار قتال شديد بين الجيشين، فتساقط القتلى من الفريقين دون أن تكون الغلبة لأحدهما.

اليوم الثالث الجمعة ٣ صفر ٣٧ هـ:

في اليوم الثالث خرج على جيش العراق عمارُ بن ياسر، وكان حينذاك قد تجاوز التسعين من عمره، وعلى جيش الشام عمرو بن العاص، وتقاتل الفريقان من الصباح حتى المغرب، ولم يتم النصر لأحد الفريقين على الآخر.

اليوم الرابع السبت ٤ صفر ٣٧ هـ:

في اليوم الرابع خرج على فريق عليٍّ بن أبي طالب محمدُ بنُ علي بن أبي طالب الْمُسمّى محمد بن الحنفية، وعلى جيش الشام عبيدُ الله بن عمر بن الخطاب، ودار القتال بين الفريقين من الصباح إلى المساء، وسقط القتلى من الطرفين ثم تحاجزا، ولم تتم الغلبة لأحد على الآخر.

اليوم الخامس الأحد ٥ صفر ٣٧ هـ:

خلال اليوم الخامس، كان على فريق عليٍّ بن أبي طالب عبدُ الله بن عباس، وعلى الفريق الآخر الوليدُ بن عقبة، وتقاتل الفريقان طوال اليوم دون أن يحرز أحدهما النصر.

اليوم السادس الإثنين ٦ صفر ٣٧ هـ:

في اليوم السادس ولي على فريق العراق قيسُ بن سعد، وعلى جيش الشام شرحبيلُ بن ذي الكلاع، وكان هو في جيش معاوية، وقد قُتل والده ذو الكلاع الحميري في هذه المعركة، ودار قتال شديد بين الفريقين من الصباح إلى المساء، تساقط خلاله القتلى وكثر الجرحى دون أن تكون الغلبة لأحد الفريقين.

اليوم السابع الثلاثاء ٧ صفر ٣٧ هـ:

وفي اليوم السابع خرج للمرة الثانية كل من الأشتر النخعي على مجموعة من جيش العراق، وحبيب بن مسلمة على جيش الشام فكلاهما قائدا الجيشين خلال اليوم الأول كذلك.

وفي مساء هذا اليوم، تبين أن استمرار هذا الأمر، من إخراج فرقة تتقاتل مع الفرقة الأخرى دون أن يكون النصر لأحد سيأتي على المسلمين بالهلاك، ولن يحقق المقصود، وهو إنهاء هذه الفتنة، وكان علي بن أبي طالب يفعل ذلك ليجنّب المسلمين خطر التقاء الجيشين الكبيرين، ولئلا تُراق دماء كثيرة، فكان يُخرج مجموعة من الجيش لعلها أن تهزِم المجموعةَ الأخرى، فيعتبروا ويرجعوا عما هم عليه من الخروج عليه، وكذلك كان معاوية بن أبي سفيان يخرِج مجموعة من جيشه فقط دون الجيش كله ليمنع بذلك إراقة دماء المسلمين. فقرر علي بن أبي طالب أن يخرج بجيشه كله لقتال جيش الشام، وكذلك قرر معاوية بن أبي سفيان، وبقي الجيشان طوال هذه الليلة يقرؤون القرآن ويصلون ويدعون الله أن يمكنهم من رقاب الفريق الآخر جهادًا في سبيل الله، ويدوّي القرآن في أنحاء المعسكرين، وبايع

جيشُ الشام معاوية على الموت، فليس عندهم تردد فيما وصلوا إليه باجتهادهم، ويستعدون للقاء الله تعالى على الشهادة في سبيله، ومع أنهم يعلمون أنهم يقاتلون فريقًا فيه كبار الصحابة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وغيرهم، إلا أنه كان معهم أيضًا الكثير من الصحابة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من أفقه الصحابة، ولم يكن يرغب على الإطلاق أن يقاتل في صف معاوية ولا في صف علي ولم يشترك في هذه المعركة إلا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أوصاه بألا يخالف أباه، وقد أمره أبوه عمرو بن العاص أن يشارك في القتال، فاشترك في الحرب، غير أنه لم يقاتل ولم يرفع سيفًا في وجه أحد من المسلمين.

اليوم الثامن الأربعاء ٨ صفر ٣٧ هـ:

وفي اليوم الثامن خرج علي بن أبي طالب بنفسه على رأس جيشه، كما خرج معاوية بن أبي سفيان على رأس جيشه، ودار بين المسلمين من الطرفين قتال عنيف وشرس، لم يحدث مثلُه من قبل، فهؤلاء هم الأسود الشجعان الذين قهروا دولة الروم ودولة الفرس، وثبت الفريقان لبعضهما ولم يفرَّ أحد، ودار القتال من الصباح حتى العشاء، وتحاجز الفريقان بعد سقوط الكثير من القتلى والجرحى.

اليوم التاسع الخميس ٩ صفر ٣٧ هـ:

وفي اليوم التاسع صلّي علي بن أبي طالب الصبح، وخرج مباشرة لساحة القتال مستأنفًا من جديد، كان على مَيْمنة علي بن أبي طالب عبدُ الله بن بديل، وعلى مَيْسرته عبدُ الله بن عباس، فهجم عبد الله بن بديل على ميسرة معاوية بن أبي سفيان وعليها حبيبُ بن مسلمة، وأجبرهم عبد الله بن بديل على التوجه إلى القلب، وبدأ جيش عليّ في إحراز بعض من النصر، ويرى ذلك معاوية، فيوجّه جيشَه لسد هذه الثغرة، وينجح جيشُه بالفعل في سد الثغرة ويردّون عبدَ الله بن بديل عن مَيسرتهم، وقُتل في هذا اليوم خَلق كثير، وانكشف جيش علي بن أبي طالب حتى وصل الشاميون إلى علي، فقاتل بنفسه قتالًا شديدًا، وتقول بعض الروايات إنه قتل وحدَه في هذه الأيام خمسمائة من الفريق الآخر.

بدأ جيش علي بن أبي طالب في الانكسار بعد الهجمة التي شنها عليها جيش معاوية بن أبي سفيان، فأمر علي بن أبي طالب الأشتر النخعي لينقذ الجانب الأيمن من الجيش، واستطاع بقوة بأسه وكلمته على قومه أن ينقذ الموقف، وأظهر بأسه وقوته وشجاعته في هذا الموقف، ورد الأمر إلى نصابه، واستطاعت مَيمنة الجيش من السيطرة مرةً أخرى على أماكنها التي كانت قد انسحبت منها. وقتل في هذا اليوم عبدُ الله بن بديل وتكاد الكرّة تكون على جيش علي، لولا أن ولّى عليٌّ على الميمنة الأشتر النخعي.

نتائج المعركة

لَمّا رأى معاوية بن أبي سفيان انتصارات جيش علي على جيشه، وقد قرب منه القائد مالك الأشتر مع مجموعته، دعا عمرو بن العاص إلى خطّة للوقوف أمام هذه الانتصارات، فقام عمرو بن العاص بخدعة، حيث دعا جيش

معاوية إلى رفع المصاحف على أسنّة الرماح، ومعنى ذلك أنّ القرآن حَكَمٌ بينهم، ليدعوا جيش علي إلى التوقف عن القتال ويدعون عليًّا إلى حُكم القرآن.

وفعلاً جاء زهاء عشرين ألف مقاتل من جيش عليٍّ حاملين سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودّت جباههم من السجود، يتقدّمهم عصابة من القرّاء الذين صاروا خوارجَ فيما بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: "يا علي، أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيتَ، وإلاّ قتلناك كما قتلنا ابن عفّان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم" وكان عليٌّ في هذا الموقف أمام خيارين: فإما المضي بالقتال، ومعنى ذلك أنّه سيقاتل ثلاثة أرباع جيشه وجيش أهل معاوية. وإما القبول بالتحكيم وهو أقلّ الشرّين خطراً. فقبل علي بن أبي طالب التحكيم وترك القتال. فتعاهدوا على ذلك، واتفقوا على ألا ينقض أحد عهده، وأنهم سوف يذهبون لقتلهم، أو يموتون، وتواعدوا أن يقتلوهم شهر رمضان، وكتموا الأمر عن الناس جميعًا إلا القليل، ومن هؤلاء القليل من تاب وحدّث بهذا الأمر. وتوقف القتال وأذن عليٌّ بالرحيل إلى الكوفة، وتحرك معاوية بجيشه نحو الشام، وأمر كل منهما بإطلاق أسرى الفريق الآخر وعاد كل إلى بلده.

قُتل من الطرفين خلال المعركة سبعون ألف شهيد، فمن أصحاب معاوية بن أبي سفيان قتل خمسة وأربعون ألفاً، ومن أصحاب علي بن أبي طالب خمسة وعشرون ألفاً.

التحكيم

ذهب كلٌّ من الحَكَمين إلى كل فريق على حدة، وأخذا منهما العهود والمواثيق أنهما أي الحكمان آمنان على أنفسهما، وعلى أهليهما، وأن الأمة كلها عونٌ لهما على ما يريان، وأن على الجميع أن يطيع على ما في هذه الصحيفة، فأعطاهم القوم العهود والمواثيق على ذلك، فجلسا سويًا، واتفقا على أنهما يجلسان للحكم في رمضان من نفس العام، وكان حينئذ في شهر صفر سنة ٣٧ هـ.

وتَفَرَّقُوا على أنْ تَجْعَلَ كُلُّ طائفةٍ أمرَها إلى رَجُلٍ حتى يكونَ الرَّجلانِ يَحْكُمانِ بينَ الدَّعْوَيينِ بالحقِّ. فكانَ مِنْ جِهَةِ عليٍّ أبو مُوسى[1]، ومن جهةِ مُعاوِيَة عُمْرُو بنُ العاصِ[2].

وكان أبو موسى رَجلاً ثَقِفاً[3] فقيهاً عالماً حسبما بيَّناهُ في كتابِ "سِراج الْمُريدينَ"[4]، أرسلَه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إلى اليَمَنِ مع معاذٍ، وقدَّمَه عُمَرُ وأَثْنى عليه بالفَهْمِ. وزَعَمَتِ الطائفةُ التاريخيَّةُ الرَّكيكةُ[5] أنَّه كان أَبْلَهَ ضعيفَ الرأيِ مخدوعاً في القولِ، وأنَّ ابنَ العاصِ كان ذا دَهاءٍ وأَرْبٍ[6] حتى ضُرِبَتِ الأمثالُ بدَهائه تأكيداً لِمَا أرادتْ مِنَ الفَسادِ.

---

١ – أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري: صحابي، وَلَّاهُ النبي صلى الله عليه و سلم على زبيد وعدن، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة، وولاه عثمان بن عفان على الكوفة، وكان الْمُحكَّم الذي اختاره علي بن أبي طالب من بين حزبه يوم صفين.

٢ – عَمْرو بن العاص بن وائِل السَّهْمِي القرشي الكناني (٤٧ ق هـ – ٤٣ هـ): صحابي وقائد عسكري مسلم، وأحد القادة الأربعة في الفتح الإسلامي للشام، وقائد الفتح الإسلامي لمصر، وأول والٍ مسلم على مصر بعد فتحها.

٣ – يعني حاذق فطِن ذكي.

٤ – من مؤلفات أبي بكر بن العربي وهو في الزهد والتصوف السُّني، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٣٤٨ ب.

٥ – الرافضة أعداء الصحابة.

٦ – الأَرَبُ: الدَّهاءُ والفطنةُ والبَصَرُ بالأُمور.

وتَبِعَ في ذلك بعضُ الجُهّالِ بعضاً وصَنَّفُوا فيه حكاياتٍ، وغيرُه مِنَ الصَّحابةِ كان أَحْذَقَ منه وأَدْهى، وإنما بَنَوا على أنَّ عَمْراً لما غَدَرَ أبا موسى في قِصَّةِ التَّحْكيمِ صار له الذِّكر في الدّهاء والفِكرِ.

وقالوا[1] إنهما لَمّا اجْتَمَعا بأَذْرُحَ[2] مِنْ دُومَةِ الجَنْدَلِ وتَفاوَضا اتَّفَقا على أنْ يَخْلَعا الرَّجُلَينِ، فقال عَمْرٌو لأبي موسى: اسْبِقْ بالقولِ. فتَقَدَّم فقال: إني نَظَرتُ فخَلَعْتُ عليًّا عنِ الأمرِ، ويَنْظُرُ المسلمونَ لأنفسِهم، كما خلعتُ سَيْفي هذا مِنْ عُنُقي - أو مِنْ عاتِقي - وأَخْرَجَه مِنْ عُنُقِه فوضَعَه في الأرضِ.

وقام عَمْرٌو فوَضَعَ سَيْفَه في الأرْضِ وقال: إني نَظَرتُ فأَثْبَتُّ مُعاوِيَة في الأمرِ كما أُثْبِتُ سَيْفي هذا في عاتِقي، وتَقَلَّدَه. فأَنْكَرَ أبو موسى[3]. فقال عمرو: كذلكَ اتَّفَقْنا. وتَفَرَّقَ الجَمْعُ على ذلك مِنَ الاختلافِ[4].

---

١ – سوف يكذِّب المؤلف هذه الأقوال كلها بعد قليل ويفندها واحدة واحدة كعادته.

٢ – منطقة بين الأردن والسعودية.

٣ – يعني عابه واحْتَجَّ عَلَيْهِ، واعْتَرَضَ بِشِدَّةٍ؛ فليس على هذا اتفقا.

٤ – كيف يتفق الرجلان على خلع عليّ ومعاوية، ومعاوية يومئذ لم يكن خليفة فيخلع. ولا هو ادَّعى الخلافة حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه، بل إن أبا موسى وعَمْرًا اتفقا على أن يَعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، واتفاق الحَكَمين على ذلك لا

بيان حقيقة التحكيم

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: هذا كلُّه كَذِبٌ صُراحٌ ما جَرَى منه حَرْفٌ قَطُّ، وإنَّما هو شيءٌ أَخْبَرَ عنه المبتدِعةُ، ووضَعَتْه التاريخيةُ للملوكِ، فتَوارَثَه أهلُ الْمَجانَةِ والجَهارَةِ بمعاصِي اللهِ والبِدَعِ.

وإنما الذي رَوَى الأئمَّةُ الثِّقاتُ الأثْباتُ أنهما[1] لما اجْتَمَعا للنَّظَرِ في الأمرِ - في عُصْبةٍ كريمةٍ مِنَ الناسِ منهمُ ابنُ عُمَرَ ونحوُه - عَزَلَ عَمْرٌو مُعاوِيَةَ.

يتناول معاوية؛ لأنه لم يكن خليفة، ولم يقاتل على الخلافة، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان، فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم تناول التحكيم شيئًا واحدًا هو الإمامة، أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقي كما كان: عليٌّ متصرف في البلاد التي تحت حُكمه، ومعاوية متصرف في البلاد التي تحت حكمه، فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة، وكان يكون محل للمكر أو الغفلة لو أن عَمْرًا أعلن في نتيجة التحكيم أنه ولَّى معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين، وهذا ما لم يعلنه عمرٌو، ولا ادعاه معاوية، ولم يقل به أحد في الثلاثة عشرَ قرنًا الماضية. وخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن علي، وقد تمت بمبايعة الحسن لمعاوية، ومن ذلك اليوم فقط سمي معاويةُ أمير المؤمنين، فعمرٌو لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه، إنه لم يعطِ معاوية شيئًا جديًّا، ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسى، ولم يخرج عما اتفقا عليه معًا، فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يد من كانت تحت يده من قبل، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبل، وتعلقت الإمامة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة عليها، وأي ذنب لعمرو في أي شيء مما وقع؟ إن البلاهة لم تكن من أبي موسى، ولكن ممن يريد أن يفهم الوقائعَ على غير ما وقعت عليه، فليفهمها كل من شاء كما يشاء. أما هي، فظاهرة واضحة لكل من يراها كما هي. (محب الدين الخطيب).

١ - أي الحكمان.

ذَكَرَ الدارَقُطْنِيُّ بسَنَدَهِ إلى حُضينِ[1] بنِ الْمُنذِرِ: لَمَّا عَزَلَ عَمْرٌو مُعاوِيَةَ جاء [أيْ حُضَينُ بنُ الْمُنذرُ] فضَرَبَ فُسْطاطَهُ[2] قريباً مِنْ فُسْطاطِ مُعاوِيَةَ، فبَلَغَ نَبَؤُه مُعاوِيَةَ، فأرْسَلَ إليه فقالَ: إنه بَلَغَني عنْ هذا [أيْ عنْ عَمْرٍو] كذا وكذا، فاذْهَبْ فانظُرْ ما هذا الذي بَلَغَني عنه، فأَتَيْتُه فقلتُ: أَخْبِرْني عنِ الأمرِ الذي وَلِيتَ أنت وأبو موسى كيف صَنَعْتُما فيه؟ قال: قدْ قالَ الناسُ في ذلكَ ما قالوا، واللهِ ما كان الأمرُ على ما قالوا، ولكنْ قلتُ لأبي موسى: ما تَرَى في هذا الأمرِ؟ قالَ أَرَى أنَّه في النَّفَرَ الذين تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راضٍ[3]. قلتُ: فأينَ تَجْعَلُني أنا ومُعاوِيَة؟ فقالَ: إنْ يُسْتَعَنْ بِكُما ففيكُما مَعونَةٌ، وإنْ يُسْتَغْنَ عنكُما فطالما استَغْنى أمرُ اللهِ عنكُما. قال: فكانت هي التي قَتَلَ مُعاوِيَةُ منها نفْسَه. فأتيتُه فأخبرتُه [أيْ أتى حضينٌ مُعاوِيَة فأخبَرَه] أنَّ الذي بَلَغَه عنه كما بَلَغَه. فأرْسَلَ إلى

---

١ – في نسخة دار الجيل: حُصين، بالصاد المهملة.

٢ – خيمته.

٣ – أي نجعل الاختيار فيه للصحابة.

أَبي الأعورِ الذَّكْواني[1] فبَعَثَه في خَيْلِه، فخَرَجَ يُرْكِضُ فرسَه ويقولُ: أينَ عدُوُّ اللهِ أينَ هذا الفاسِقُ؟

قال أبو يوسُفَ[2]: أظنُّه قال: "إنما يُريدُ حَوْباءَ نفْسِه". فخَرَجَ [عَمْرٌو] إلى فرسٍ عندَ فُسْطاطِهِ فجالَ في ظَهْرِه عُريانَ، فخَرَجَ يُرْكِضُه نحو فُسْطاطِ مُعاوِيَةَ وهو يقولُ: "إنَّ الضَّجُورَ قدْ تَحْلِبُ العُلْبَةَ" يا مُعاوِيَةُ، إن الضَّجُورَ قدْ تَحْلِبُ العُلْبَةَ. فقال مُعاوِيَة: أجل، وتُرْبِدُ الحالبَ فتَدَقُّ أنْفَه، وتَكْفَأُ إناءَه[3].

قال الدَّارَقُطْنِيُّ - وذَكَرَ سَنَداً عَدْلاً وساقَ الحديثَ: عنْ رِبْعي عنْ أبي موسى أنَّ عَمْرَو بنَ العاصِ قالَ: «واللهِ لَئِنْ كان أبو بَكْرٍ وعُمَرُ تركا هذا المالَ وهو يَحِلُّ لهما منه شيءٌ لقد غُبِنَّا ونَقُصَ رأيُهما. وايمُ اللهِ ما كانا

---

١ – ذكوان قبيلة من سليم، واسمه عمرو بن سفيان، كان من كبار قواد معاوية، وفي حرب صفين طلب الأشتر أن يبارزه، فترفع عن ذلك؛ لأنه لم ير الأشتر من أنداده.

٢ – راوي هذا الخبر عن الأسود بن شيبان عن عبد الله بن مضارب عن حضين.

٣ – الضجور: الناقة التي ترغو وتعربد عند الحلب. و"قد تحلب الضجور العلبة" مَثَل، ومعناه: أن الناقة التي ترغو قد تحلب ما يملأ العلبة، يضربونه للسيئ الخُلق قد يكون منه الرفق واللين، وللبخيل قد يُستخرج منه المال.

مَغْبونَينِ ولا ناقِصَي الرَّأْيِ. ولَئِنْ كانا امْرَأَينِ يَحْرُمُ عليهما هذا المالُ الذي أَصَبْناه بعدَهما لقدْ هَلَكْنا. وايمُ اللهِ ما جاء الوَهْمُ إلا مِنْ قِبَلِنا»[1].

وجوب الأدب مع الصحابة

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فهذا كان بدءُ الحديثِ ومُنْتهاهُ. فأَعْرِضوا عنِ الغاوِينَ، وازْجُروا العاوِينَ، وعَرِّجوا عنْ سبيلِ الناكِثينَ، إلى سَنَنِ المهتدِينَ، وأَمْسِكوا الأَلْسِنةَ عنِ السابقينَ إلى الدِّينِ، وإيَّاكُمْ أنْ تَكونوا يومَ القيامةَ مِنَ الهالِكِينَ بخُصومَةِ أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فقدْ هَلَكَ مَنْ كان أصحابُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ خصْمَه. ودَعُوا ما مَضَى فقدْ قَضَى اللهُ ما قَضَى. وخُذُوا لأنفسِكُم الجِدَّ فيما يَلْزَمُكُم اعتقاداً وعملاً، ولا تَسْتَرْسِلُوا بأَلْسِنَتِكم فيما لا يَعْنِيكم مع كلِّ ناعِقٍ اتَّخَذَ الدِّينَ هَمَلاً، فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.

---

١ – أورد المؤلف هذا الخبر للدلالة على ورع عمرو ومحاسبته لنفسه وتذكيرها بسيرة السلف.

ورَحِمَ اللهُ الربيعَ بنَ خثيمٍ[1] فإنه لما قيلَ له: قُتِلَ الحُسَيْن! قال: أَقَتَلُوه؟ قالوا: نعمْ، فقالَ {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، ولم يَزِدْ على هذا أبداً، فهذا العَقلُ والدِّينُ، والكَفُّ عنْ أحوالِ المسلمينَ، والتَّسْليمُ لربِّ العالمينَ.

مزاعم النَّص على استخلاف عليٍّ

قال القاضي أبو بكر بن العربي: فإنْ قيلَ[2]: إنَّما يكونُ ذلكَ في المعاني التي تُشْكِلُ، وأمَّا هذه الأمورُ كلُّها فلا إشكالَ فيها، لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ نَصَّ على استخلافِ عليٍّ بعدَه فقالَ: «أنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِنْ موسى، إلّا أنَّه لا نَبِيَّ بَعْدي»[3]، وقال: «اللّٰهُمَّ والِ مَنْ والاهُ وعادِ مَنْ

---

١ – هو من تلاميذ عبد الله بن مسعود وأبي أيوب الأنصاري وعمرو بن ميمون، وأخذ عنه الإمام الشعبي وإبراهيم النخعي وأبو بردة. قال له ابن مسعود: لو رآك النبي لأحبك. توفي سنة ٦٤.

٢ – قال أعداء الصحابة.

٣ – يوم خرج الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك واستخلف عليًا على المدينة فقال علي: أتخلّفني في الصبيان والنساء؟ قال: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي) صحيح البخاري – المغازي وفضائل الصحابة. ولو دل هذا على الاستخلاف، لاقتضى أن ابن أم مكتوم خليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه استخلفه على المدينة، واستخلف أيضًا غيره، فلماذا خُصَّ عليٌّ رضي الله عنه بالخلافة دون غيره، مع اشتراك الكل في الاستخلاف؟

عاداهُ، وانْصُرْ مَنْ نَصَرَه واخْذُلْ مَنْ خَذَلَه»[1]، فلمْ يَبْقَ بعدَ هذا خلافٌ لمعانِدٍ.

فتَعَدَّى عليه أبو بكرٍ واقْتَعَدَ[2] في غيرِ موضِعِه[3].

ثُمَّ خَلَفَه في التَّعَدِّي عُمَرُ.

ثُمَّ رُجِيَ أنْ يُوَفَّقَ عُمَرُ للرجُّوعِ إلى الحقِّ، فأَبْهَمَ الحالَ، وجَعَلَها شُورَى قَصْراً للخِلافِ، للذي سَمِعَ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[4].

ثُمَّ تَحَيَّلَ ابنُ عَوْفٍ حتى ردَّها عنه إلى عُثمانَ[5].

---

١ – أخرجه النسائي في "خصائص علي" وأحمد والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وله طرق أخرى كلها صحيحة، ولكن ليس في طريق من طرقها جميعها: "اللهم انصر من نصره واخذل من خذله".

٢ – يقصدون أنه اتخذ الخلافة مطية بغير حق. وفي المعجم: اِقْتَعَدَ الدَّابَّةَ: اِتَّخَذَهَا مَطِيَّةً، مَرْكَباً.

٣ – أورد المؤلف كل الأقوال المزعومة في النص على استخلاف عليّ وكتمان الصحابة لذلك ثم رد عليها كلها بعد قليل.

٤ – يقصدون أن عمر رضي الله عنه تعمد إخفاء أمر الرسول ﷺ الذي سمعه منه في شأن استخلاف عليّ وسارع عند موته بجعل الأمر شورى بين ستة منهم علي، ليحرمه حقه في الخلافة في زعمهم.

٥ – أعداء الصحابة زعموا أن عبد الرحمن بن عوف جامل عثمانَ على حساب عليّ في أمر الخلافة إذ جعل عمرُ ترجيح الكفَّتين إذا تساوتا بعبد الرحمن بن عوف، وأنَّ علياً أحسَّ بأن الخلافة ذهبت منه؛ لأنَّ عبد الرحمن سيقدِّم عثمان للمصاهرة الّتي بينهما.

ثم قُتِلَ عثمانُ لتَسَوِّرِهِ على الخلافةِ وعلى أحكامِ الشريعة[١]، وصار الأمرُ إلى عليٍّ بالحقِّ الإلهيِّ النَّبويِّ، فنازَعَه مَنْ عاقَدَه، وخالَفَ عليه مَنْ بايَعَه، ونَقَضَ عهْدَهُ مَنْ شَدَّهُ[٢].

وانْتُدِبَ أهلُ الشامِ إلى الفُسوقِ في الدِّينِ، بلِ الكفْرِ[٣].

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وهذه حقيقةُ مَذْهَبِهم[٤]، وأنَّ الكلَّ عندَهم كَفَرَةٌ[٥]، لأنَّ مِنْ مَذْهَبِهم التكفيرَ بالذنوبِ. وكذلكَ تَقُولُ هذه الطائفةُ التي تُسَمَّى بالإماميَّةِ[٦]: إنَّ كلَّ عاصٍ بكبيرةٍ كافرٌ على رَسْمِ القَدَرِيَّةِ، ولا أَعْصَى مِنَ الخُلفاءِ المذكُورينَ[٧] ومَن ساعَدَهُم على أمرِهِم،

---

١ – {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}.

٢ – شد العهد: أوثقه. ونقضه: حلّه وفكّه وأبطله.

٣ – يقصدون لما خرج معاوية وأهل الشام طالبين من عليٍّ القصاص من قتلة عثمان.

٤ – مذهب أعداء الصحابة.

٥ – يستثنون منهم علياً وسلمان الفارسي وأبا ذر وعمار بن ياسر.

٦ – الإمامية: اسم يطلق على طوائف الشيعة التي تؤمن بأن إمامة المسلمين تأتي نصّاً لكل إمام من الإمام المعصوم من أئمة أهل البيت السابق له، فيخالفون بذلك طوائف أخرى مثل الزيدية التي لا تشترط أن يكون الإمام من البيت. ويسمون أيضا بالجعفرية لاتفاقهم على الأئمة الستة الأوائل ويفترقون من بعد الإمام السادس جعفر الصادق إلى فرق عديدة بسبب اختلافهم على الإمام التالي. ويسميهم بعض خصومهم بالرافضة.

٧ – الخلفاء المذكورون الذين قال فيهم النبي ﷺ: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي.

وأصحابُ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أحرصُ الناسِ على دُنيا، وأَقَلُّهم حَمِيَّةً على دِينٍ، وأَهْدَمُهُم لِقاعِدَةٍ وشَريعةٍ[1].

تفنيد مزاعم النَّص على استخلاف عليٍّ

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: يَكْفيكَ مِنْ شَرٍّ سَماعُه، فكيف التَّمَلمُلُ به. خَمسمائةِ عامٍ عَدا إلى يومِ مَقالي هذا - لا نَنْقُصُ منها يوماً ولا نَزيدُ يوماً - وهو مُهَلُّ شَعْبانَ سَنَةَ سِتٍّ وثلاثينَ وخمسمائةٍ وماذا يُرجَى بعدَ التمامِ إلا النَّقْصُ؟

ما رَضِيَتِ النَّصارَى واليهودُ في أصحابِ مُوسَى وعِيسَى ما رَضِيتِ الرَّوافضُ في أصحابِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[2] حين حَكَمُوا عليهم بأنَّهم قدِ اتَّفَقُوا على الكفرِ والباطلِ. فما يُرْجَى مِنْ هؤلاءِ وما يُسْتَبْقى منهم؟ وقدْ قالَ اللهُ تَعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

---

١ – ليس القصد الطعن في الصحابة بقدر ما هو طعن فيمن رباهم وعلمهم وهو رسول الله ﷺ .

٢ – يعني لم يقل اليهود والنصارى – على ظلمهم – في أصحاب موسى وعيسى ما قاله أعداء الصحابة في الصحابة، فقد نسبوا إليهم ما لا يقبله عقل.

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا}، وهذا قولُ صِدْقٍ ووَعْدُ حَقٍّ. وقدِ انْقَرَضَ عَصْرُهم ولا خِلْفَةَ فيهم ولا تَمْكينَ ولا أمْنَ ولا سُكونَ إلا في ظُلمٍ وتَعَدٍّ وغَصْبٍ وهَرجٍ وتَشْتيتٍ وإثارةِ ثائرةٍ!

وقدْ أَجْمَعَتِ الأمَّةُ على أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ما نصَّ على أحدٍ يكونُ مِنْ بعدِه[1].

وقد قال العباسُ لعليٍّ - فيما رَوَى عنه عبدُ اللهِ ابنُه - قال عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ: خَرَجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه مِنْ عندِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في وَجَعِهِ الذي تُوُفِّيَ فيه، فقال الناسُ: يا أبا حَسَنٍ، كيف أَصْبحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؟ قال: أَصْبحَ بحمْدِ اللهِ بارِئاً. فأَخَذَ بِيَدِهِ عباسُ بنُ عبدِ المطَّلبِ فقالَ له: أنتَ واللهِ بعد ثلاثٍ عبدُ العَصا[2]. وإني لأَرَى رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هذا. إني

---

١ - سئل الحسنُ المثنى بنَ الحسن السِّبط بن علي بن أبي طالب فقيل له: ألم يقل رسول الله (من كنت مولاه فعليٌّ مولاه)؟ فقال: (بلى: ولكن والله لم يعنِ رسولُ الله بذلك الإمارةَ والسلطان. ولو أراد ذلك لفصحَ لهم به، فإن رسولَ الله كان أنصحَ للمسلمين. ولو كان الأمر كما قيل لقال: يا أيها الناس هذا وليُّ أمركم والقائم عليكم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا. والله لئن كان الله ورسوله اختار عليًا لهذا الأمر وجعله القائمَ للمسلمين من بعده ثم ترك عليٌّ أمرَ الله ورسوله، لكان عليٌّ أول مَن ترك أمر الله ورسوله) الحافظ ابن عساكر (٤ : ١٦٦).

٢ - يعني أنَّك ستكونُ تَابِعًا مَأْمُورًا، ولن تكونَ الخليفةَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

لأَعْرِفُ وُجُوهَ بَنِي عبدِ المطَّلِبِ عندَ الموتِ. اذْهَبْ بِنا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فلنسأَلَه فيمَنْ يكونُ هذا الأمرُ بعدَه، فإنْ كان فينا عَلِمْنا ذلكَ، وإنْ كان في غيرِنا علِمْنا فأَوْصَى بنا. فقال عليٌّ: إنَّا واللهِ لَئِنْ سَأَلْناها رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فمَنَعَناها لا يُعْطِيناها الناسُ بعدَه، وإني واللهِ لا أَسْأَلُها رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[1].

قال القاضي أبو بكر رضي الله عنه: رأيُ العباسِ عندي أصحُّ وأقرب إلى الآخرةِ، والتصريحُ بالتحقيق. وهذا يُبْطِلُ قولَ مُدَّعي الإشارةِ باستخلافِ عليٍّ، فكيف أنْ يُدَّعى فيه نَصٌّ؟[2]

---

١ – رواه البخاري في كتاب المغازي من صحيحه (ك ٦٤ ب ٨٣ – ج ٥ ص ١٤٠ – ١٤١). ونقله ابن كثير في البداية والنهاية (٥ : ٢٢٧ و ٢٥١) من حديث الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن ابن عباس. ورواه الإمام أحمد في مسنده (١ : ٢٦٣ و ٣٢٥ و ٢٣٧٤ و ٢٩٩٩).

٢ – يعني لو كان هناك نص أو إشارة من رسول الله ﷺ لعليّ لما قال العباس لعليٍّ ذلك.

الأحاديث في فضائل أبي بكر وعُمَر

فأمَّا أبو بكرٍ[1]، فقدْ جاءتِ امرأةٌ إلى النبيِّ ﷺ فأَمَرَها أنْ تَرْجِعَ إليه، قالتْ له: فإنْ لم أَجِدْكَ - كأنَّها تَعْني الموتَ - قالَ: تَجِدِينَ أبا بكرٍ[2].

وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لعُمَر وقدْ وَقَعَ بينَه [أيْ بينَ عُمَرَ] وبينَ أبي بكرٍ كلامٌ، فتَمَعَّرَ[3] وجْهُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، حتى أَشْفَقَ مِنْ ذلكَ أبو بكرٍ، وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: «هلْ أنتمْ تارِكو لي صاحِبي (مرَّتين). إني بُعِثْتُ إليكمْ فقلْتُم: كَذَبْتَ، وقالَ أبو بكرٍ صَدَقْتَ، أَلَا إني أَبْرَأُ إلى كلِّ خَليلٍ مِنْ خَلَّتِه»[4].

---

١ - يعني أما الدليل على استخلاف أبي بكر.

٢ - صحيح البخاري - فضائل الصحابة (ك ٦٢ ب ٥ - ج ٤ ص ١٩١)

٣ - يعني تغير وظهر فيه الغضب.

٤ - صحيح البخاري - مناقب الصحابة (ك ٦٢ ب ٥ - ج ٤ ص ١٩٢).

وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: «لو كنتُ مُتَّخِذاً في الإسلامِ خَليلاً لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خَليلاً. ولكنْ أخي وصاحِبي. وقدِ اتَّخَذَ اللهُ صاحبَكم خليلاً. لا يَبْقَيَنَّ في المسجدِ خَوْخَةٌ[1] إلا خَوْخَةُ أبي بكرٍ»[2].

وقدْ قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: «بينما أنا نائمٌ رأيتُني على قَلِيبٍ[3] عليها دَلْوٌ، فنَزَعْتُ منها ما شاء اللهُ، ثمَّ أَخَذَها ابنُ أبي قُحافةَ فنَزَعَ منها ذَنُوباً أو ذَنُوبيْنِ وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ واللهُ يَغْفِرُ له، ثمَّ استحالتْ غَرْباً، فأخَذَها ابنُ الخطّابِ، فلمْ أَرَ عَبْقرياً مِنَ الناسِ يَنزعُ نَزْعَ عُمَرَ، حتى ضَرَبَ الناسُ بعَطَنٍ»[4].

---

١ – الخَوْخَة: البابُ الصغير، وكان بعضُ الصَّحابةِ فَتَحوا أبوابًا في دِيارِهم إلى المسجدِ، فأَمَر النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بسَدِّها كلِّها إلَّا خَوْخَةَ أبي بَكْرٍ رضِي اللهُ عنه؛ لِيَتميَّز بذلك فضلُه.

٢ – صحيح البخاري – مناقب الصحابة (ج ٤ ص ١٩١).

٣ – بئر.

٤ – رأى النبي ﷺ في منامِه أنه على بِئْرٍ يَستقِي منها، فجاء أبو بَكْرٍ وعُمَرُ رضِي اللهُ عنهما، فقام أبو بَكْرٍ رضِي اللهُ عنه «فنَزَع ذَنُوبًا أو ذَنُوبَيْنِ»، أي: أَخْرَج من البِئر ذَنُوبًا من ماءٍ، وهو الدَّلْو، أو ذَنُوبَيْنِ، وفي إخراجِه للماءِ ونَزْعِه ضَعْفٌ، وليس في قوله «ضَعْف» حَطٌّ مِن قَدْرِه الرَّفِيع، وإنما هو إشارةٌ إلى قِصَرِ مُدَّةِ خِلافتِه، ثُمَّ جاء عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضِي اللهُ عنه فأَخَذ الذَّنُوبَ مِن يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فتحوَّل في يَدِه غَرْبًا، وهو الدَّلْوُ الكبيرُ الذي يُسقَى به البَعِيرُ، وهو أكبرُ مِن الذَّنُوبِ، يقول النبيُّ ﷺ: «فلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا في الناسِ يَفْرِي فَرْيَه»، والعَبْقَرِيُّ هو الحاذِق المتقِن لعملِه، والمعنى: لم أَرَ سَيِّدًا عظيمًا ورجلًا قَوِيًّا، وإنسانًا حاذِقًا يَعمل عملَه ويَقطع قَطْعَه، «حتى ضَرَب الناسُ بعَطَنٍ»، والعَطَنُ: مَبْرَكُ الإبِلِ حولَ الماء، أي: ما زال يُخرِج للناسِ الماءَ حتى نَصَب الناسُ خِيامَهم، وأَقاموا إبلَهم

وقدْ ثَبَتَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ صَعِدَ أُحُدًا وأبو بكرٍ وعُمَرُ وعثمانُ رَضِيَ اللهُ عنهم، فرَجَفَ بهمْ: فقالَ «اثْبُتْ أُحُدُ، فإنما عليكَ نَبِيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيدانِ»[1].

وقال صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: «لقدْ كان فيمَنْ كان قَبْلَكم مِنْ بَنِي إسرائيلَ رجالٌ يُكَلَّمُونَ[2] مِنْ غيرِ أنْ يكونوا أنبياءَ، فإنْ يَكُنْ في أُمَّتي منهم أَحَدٌ فعُمَر»[3].

وقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها في مَرَضِهِ: «ادْعِي لي أَبَا بَكْرٍ أَبَاكِ، وَأَخَاكِ، حتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فإنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ ويقولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»[4].

حولَ الماء، وتأويلُ هذا: ما حَصَل مِن طُولِ خلافتِه رضِي اللهُ عنه، وما كان فيها من خَيْر. والحديث في صحيح البخاري (ج ٤ ص ١٩٣).

١ – صحيح البخاري – فضائل الصحابة (ك ٦٢ ب ٥ – ج ٤ ص ١٩٧).

٢ – يعني ملهمون، يَجري الصَّوابُ على ألسنَتِهم أو يَخطُرُ ببالِهم الشَّيءُ فيَكونُ بفَضْلٍ منَ اللهِ تعالى وتَوفيقٍ، وقد وافَقَ عُمرُ رضِي اللهُ عنه الوَحيَ في حَوادثَ كَثيرةٍ.

٣ – صحيح البخاري – فضائل الصحابة (ك ٦٢ ب ٦ – ج ٤ ص ٢٠٠).

٤ – أي أَراد أنْ يُرسِلَ إلى أبي بكرٍ رضِيَ اللهُ عنه ويُوصِيَ له بخِلافتِه؛ حتَّى لا يقولَ أحدٌ: إنَّه أحَقُّ بها، أو يَتمنَّى مُتمَنٍّ أنْ تكونَ الخِلافةُ له، فأُعَيِّنَهُ؛ قطْعًا للنِّزاعِ والأطماعِ، وقد أراد اللهُ ألَّا يَعهَدَ؛ ليُؤْجَرَ المسلِمونَ على الاجتِهادِ، أو ترَكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك اعتِمادًا على ما عَلِمَه مِن تَقديرِ اللهِ تعالى، "ويأبى اللهُ عزَّ وجلَّ والمؤمنون

وقالَ ابنُ عباسٍ: إنَّ رَجُلًا أتَى رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: إنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ في المَنامِ ظُلَّةً تَنْطُفُ السَّمْنَ والعَسَلَ، فأرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ منها، فَالْمُسْتَكْثِرُ والْمُسْتَقِلُّ، وإذَا سَبَبٌ واصِلٌ مِنَ الأرْضِ إلى السَّمَاءِ، فأرَاكَ أخَذْتَ به فَعَلَوْتَ، ثُمَّ أخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا به، ثُمَّ أخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا به، ثُمَّ أخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ ثُمَّ وُصِلَ (وذَكَرَ الحديثَ).

ثم عَبَرها أبو بكرٍ فقالَ: وأَمَّا السَّبَبُ الوَاصِلُ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأرْضِ فَالحَقُّ الذي أنْتَ عليهِ، تَأْخُذُ به فيُعْلِيكَ اللَّهُ، ثُمَّ يَأْخُذُ به رَجُلٌ مِن بَعْدِكَ فَيَعْلُو به، ثُمَّ يَأْخُذُ به رَجُلٌ آخَرُ فَيَعْلُو به، ثُمَّ يَأْخُذُهُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ به، ثُمَّ يُوصَلُ له فَيَعْلُو به»[1].

إلَّا أبا بكرٍ"، أي: يأبى اللهُ إلَّا خِلافةَ أبي بكرٍ، ويَرفُضُ المسلِمون خِلافةَ غيرِه. وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في صحيح البخاري ومسلم وأحمد والنسائي في (السنن الكبرى).

[1] – أتَى رجلٌ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: «إنِّي رأيتُ الليلةَ في المنامِ ظُلَّةً» أي: سَحَابَةً لها ظُلَّةٌ، وكلُّ ما أَظَلَّ مِن سَقِيفَةٍ ونحوِها يُسَمَّى ظُلَّةً «تَنْطُفُ»، أي: تَقطُر «السَّمْنَ والعَسَلَ، فأَرَى الناسَ يَتكفَّفون منها»، أي: يأخُذون بأَكُفِّهم، «فالمسْتَكثِرُ والمستَقِلُّ» في الأخذِ مِمَّا تَقطُر، «وإذا سَبَبٌ»، أي: حَبْلٌ «واصِلٌ مِن الأرض إلى السَّماءِ، فأَرَاكَ أخذتَ به فعَلَوْتَ، ثُمَّ أخَذ به رجلٌ آخَرُ فعَلَا به، ثُمَّ أخَذ به رجلٌ آخَرُ فانْقَطَع ثُمَّ وُصِل». فقال أبو بَكْرٍ: «يا رسولَ الله، بأَبِي أنتَ»، أي: أُفَدِّيكَ بأَبِي، «والله لَتَدَعَنِّي فأَعْبُرَها»، أي: أفسِّرها، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «اعْبُرْها». قال: «أمَّا الظُّلَّةُ فالإسلامُ، وأمَّا الَّذِي يَنطُف مِن العَسَلِ والسَّمْنِ فالقُرْآنُ حَلاوَتُه تَنطُف، فالمستَكْثِرُ مِن القُرآنِ والمستَقِلُّ، وأمَّا السببُ الواصلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ فالحقُّ الَّذِي أنتَ عليه، تأخُذ به فيُعلِيك الله، ثُمَّ يأخُذ به رجلٌ»، وهو أبو بَكْر رَضِيَ الله عنه «مِن بَعدِك فيَعْلُو به، ثُمَّ

وصَحَّ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ ذاتَ يومٍ: «مَنْ رَأَى منكم رُؤيا؟» فقالَ رجلٌ: أنا رأيتُ كأنَّ ميزاناً نَزَلَ مِنَ السماءِ، فوُزِنْتَ أنتَ وأبو بكرٍ فرَجَحْتَ. ووُزِنَ أبو بكرٍ وعُمَر فرَجَحَ أبو بكرٍ. ووُزِنَ عُمَر وعثمانُ فرَجَحَ عُمَرُ. ثُمَّ رُفِعَ الميزانُ. فرَأَيْنا الكَراهِيةَ في وَجْهِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[1].

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وهذه الأَحاديثُ جِبالٌ في البَيانِ، وجِبالٌ في السَّبَبِ إلى الحقِّ لِمَنْ وفَّقَه اللهُ. ولو لم يَكُنْ معكم - أيُّها السُّنِّيَّةُ - إلا قولُه تعالى {إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ

يأخُذ به رجلٌ آخَرُ» وهو عُمَرُ رَضِيَ الله عنه «فيَعْلُو به، ثُمَّ يأخُذُ به رجلٌ آخَرُ» وهو عُثْمَانُ رَضِيَ الله عنه «فيَنقَطِع به، ثُمَّ يُوصل له فيَعْلُو به»؛ إشارةً إلى أنَّ عُثمانَ كاد أن يَنقطِعَ به الحَبْلُ عن اللُّحُوقِ بصاحِبَيْهِ بسببِ ما وقَعَ له مِن تِلك القضايا الَّتِي أنكروها، فعُبِّرَ عنها بانقطاعِ الحَبْلِ، ثُمَّ وَقَعت له الشَّهادَةُ فاتَّصَل بهم، فعُبِّرَ عنه بأنَّ الحَبْلَ وُصِلَ له فاتَّصَل، فالْتَحَق بهم، قال أبو بكر «فأخبِرني يا رسولَ الله، بأبي أنتَ»، أي: أُفَدِّيكَ بأبي «أَصَبْتُ أم أخطأتُ؟» قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَصَبْتَ بعضًا وأخطأتَ بعضًا». قال: فواللهِ لَتُحَدِّثَنِّي بالَّذِي أخطأتُ! قال: «لا تُقسِمْ». فلم يُخبِرْه صلَّى الله عليه وسلَّم. أخرجه البخاري، ومسلم.

[1] – أي: رأَيْنا علاماتِ الحُزنِ والأسَفِ في وجْهِ النَّبيِّ ﷺ، وكأنَّه ساءَه ما سمِعَ من رفْعِ الميزان وذلك لما علم ﷺ من أن تأويل رفع الميزان ظهور الفتن بعد خلافة عمر رضي الله عنه. أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في (السنن الكبرى) وأحمد.

كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} فجعَلَها (في نَصِيفٍ، وجَعَلَ أبا بكرٍ في نَصِيفٍ آخَرَ وقامَ معه جميعُ الصحابةِ.

وإذا تَبَصَّرْتم هذه الحقائقَ فليس يَخْفى منها حالُ الخلفاءِ في خِلالِهم وولايَتِهم وتَرْتيبِهم خصوصاً وعموماً. وقدْ قالَ اللهُ تَعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}. وإذا لم يَنْفُذْ هذا الوعدُ في الخُلفاءِ فلِمَنْ يَنْفُذُ؟ وإذا لم يَكُنْ فيهم ففيمَنْ يكونُ؟ والدليلُ عليه انعقادُ الإجماعِ أنه لم يَتَقَدَّمْهم في الفَضيلةِ أَحَدٌ إلى يومِنا هذا. ومَنْ بعدُ مُخْتَلَفٌ فيه، وأولئكَ مقطوعٌ بهم، مُتَيَقَّنٌ إمامتُهم، ثابتٌ نفوذُ وعدِ اللهِ لهم، فإنهم ذَبُّوا عنْ حَوْزَةِ المسلمينَ وقامُوا بسياسةِ الدِّينِ. قالَ عُلَماؤنا: ومَنْ بعدَهم تَبَعٌ لهمْ مِنَ الأئمةِ الذين همْ أركانُ الْمِلَّةِ، ودعائمُ الشَّريعةِ، الناصحونَ لعبادِ اللهِ، الهادُونَ مَنِ اسْتَرْشَدَ إلى اللهَ. فأمَّا مَنْ كان مِنَ الوُلاةِ الظَّلَمَةِ فضَرَرُه مَقصورٌ على الدُّنيا وأَحْكامِها.

ترتيب أئمة الدِّين

قال القاضي أبو بكر رضي الله عنه: وأمَّا حُفَّاظُ الدِّينِ فهمُ الأئمةُ العلماءُ الناصحونَ لدِينِ اللهِ، وهمْ أربعةُ أَصْنافٍ:

الصِّنْفُ الأوَّلُ: حَفِظُوا أخبارَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، وهمْ بمنزلةِ الخَزَّانِ لأقواتِ الْمَعاشِ.

الصِّنفُ الثاني: علماءُ الأصولِ: ذَبُّوا عنْ دِينِ اللهِ أهلَ العِنادِ وأصحابَ البِدَعِ، فهمْ شُجْعانُ الإسلامِ وأبطالُه المداعِسونَ[1] عنه في مَآزِقِ الضَّلالِ.

الصِّنْفُ الثالثُ: قومٌ ضَبَطُوا أصولَ العِباداتِ وقانونَ المعامَلاتِ، ومَيَّزوا الْمُحَلَّلاتِ مِنَ الْمُحَرَّماتِ، وأَحْكَمُوا الْخَراجَ والدِّياتِ، وبَيَّنُوا مَعاني الأَيْمانِ والنُّذورِ، وفَصَّلُوا الأَحْكامَ في الدَّعاوَى، فهمْ في الدِّينِ بمَنْزلةِ الوكلاءِ المتصَرِّفينَ في الأموالِ.

الصِّنْفُ الرابعُ: تَجَرَّدُوا للخِدْمةِ ودَأَبُوا على العِبادَةِ واعْتَزَلوا الخَلْقَ. وهمْ في الآخرةِ كخَواصِّ الْمَلِكِ في الدُّنيا.

---

١ – المدافعون المقاتلون.

وقد أوضحْنا في كتابِ سِراجِ المريدينَ[1] في القسْمِ الرابعِ مِنْ علومِ القرآنِ أيُّ المنازلِ أفضلُ مِنْ هؤلاءِ الأصنافِ وترتيبَ دَرَجاتِهم.

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وهذه كلُّها إشاراتٌ أو تَصْريحاتٌ أو دِلالاتٌ أو تَنْبيهاتٌ. ومجموعُ ذلكَ يَدُلُّ على صِحَّةِ ما جَرَى وتحقيقِ ما كان مِنَ العُقَلاءِ.

حديث غَدير خُمٍّ

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ونقولُ بعدَ هذا البيانِ على مقامٍ آخَرَ: لو كان هنالِكَ نَصٌّ على أبي بكرٍ أو على عليٍّ، لم يكنْ بدٌّ من احتجاجِ عليٍّ به[2]، أو يَحْتَجَّ له به غيرُه مِنَ المهاجِرينَ والأنْصارِ.

فأمَّا حديثُ غَديرِ خُمٍّ[3] فلا حُجَّةَ فيه، لأنه إنما اسْتَخْلَفَه في حياتِه على المدينةِ كما اسْتَخْلَفَ موسى هارونَ - في حياتِه عندَ سفرِه للمُناجاةِ - على

---

١ - أحد كتب ابن العربي الشهيرة.

٢ - حينما قيل لهم ذلك وضعوا أحاديث على لسان عليّ يحتج فيها بحادثة غدير خم على استخلافه زعموا.

٣ - أرسل النبي ﷺ قبْل حجة الوداع خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن في قتالٍ انتصر خالدٌ فيه، وغنم غنائم، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك، ويطلب إرسال من يُخمِّس تلك الغنائم، فأرسل النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه لتلك المهمة، ثم أمره أن يدركه في الحج، وقسّم رضي الله عنه تلك الغنائم كما أمر الله:

بَني إسْرائيلَ. وقد اتفقَ الكلُّ مِنْ إخوانِهم اليهودِ قاطبةً على أنَّ موسى مات بعدَ هارونَ فأينَ الخلافةُ؟[1]

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وأما قولُه: «اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاهُ» فكلامٌ صحيحٌ ودعوةٌ مُجابَةٌ، وما يُعْلَمُ أحدٌ عاداهُ إلا الرافضةُ، فإنَّهم أنزلُوهُ في غيرِ منزلتِه، ونَسَبوا إليه ما لا يليقُ بدَرَجَتِهِ. والزيادةُ في الحدِّ نُقْصانٌ مِنَ المحدودِ. ولو تَعَدَّى عليها أبو بكرٍ ما كان المتَعَدِّيَ وحدَه، بل جميعُ الصحابةِ - كما قلْنا - لأنَّهم ساعَدُوه على الباطلِ.

أربعةَ أخماس للمجاهدين، وخُمسًا لله والرسول وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. فأخذ عليٌّ خُمس ذوي القربى للنبي ﷺ فغضب بعض الصحابة كبُريدةَ بنِ الحصيب رضي الله عنه، فاشتكى بُريدةُ إليه. فلما قضى ﷺ حجّه خطب تنبيهًا على قدر عليٍّ، وردًّا على من تكلم فيه. يقول بريدةُ رضي الله عنه: «غزوت مع عليٍّ اليمن فرأيت منه جَفْوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت عليًّا فتنقَّصتُه، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغيَّر، فقال: «يا بريدةُ ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «مَن كنتُ مولاه فعَليٌّ مولاه». وقال زيدُ بنُ أرقم: لما رجع رسول الله ﷺ من حَجَّة الوداع ونزل غديرَ خُمٍّ، أمر بدوحات فقُمِمْن، فقال: «كأني قد دُعيتُ فأجبتُ، إني قد تركت فيكم الثَّقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى، وعِتْرتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض». ثم قال: «إن الله عز وجل مولاي، وأنا مولى كل مؤمن». ثم أخذ بيد عليٍّ رضي الله عنه فقال: «من كنتُ مولاه فهذا وليّه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه». (رواه النسائي في الكبرى والحاكم في المستدرك. ونقل ابن كثير عن الذهبي تصحيحه، كما في البداية والنهاية ٥/٢٢٩. وقال الألباني: وهو حديث صحيح.

١ - مات هارون فدفنه موسى عليهما السلام.

ولا تَسْتَغْرِبوا هذا مِنْ قولِهم، فإنهم يقولون: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ كان مُداريِاً لهم ومُمتَحَناً بهم على نِفاقٍ وتَقِيَّةٍ[1].

وأين أنتَ مِنْ قولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حينَ سَمِعَ قولَ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: مُرُوا عُمَرَ فلْيُصَلِّ بالناسِ: «إنكُنَّ لأنتُنَّ صواحِبُ يوسُفَ، مُرُوا أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ بالناسِ»[2]. وما قدَّمْنا مِنْ تلكَ الأحاديثِ.

لقدِ اقْتَحَمُوا عظيماً ولقدِ افْتَرَوا كبيراً.

---

١ – بل التقية دينُهم هُم وليست دينَ رسول الله ﷺ، فقد قال الحسنُ المثنى بنُ الحسن السبط بن علي بن أبي طالب لرجل من الرافضة: (والله لئن أمكننا الله منكم لنقطعن أيديكم وأرجلكم، ثم لا نقبل منكم توبة). فقال له رجل: لم لا تقبل منهم توبة؟ قال: نحن أعلم بهؤلاء منكم. إن هؤلاء إن شاءوا صدَقوكم، وإن شاءوا كذَبوكم وزعموا أن ذلك يستقيم لهم في التقيَّة. ويلك! إن التقيَّة هي باب رخصة للمسلم، إذا اضطر إليها وخاف من ذي سلطان أعطاه غيرَ ما في نفسه يدرأ عن ذمة الله، وليست باب فضل، إنما الفضل في القيام بأمر الله وقول الحق. وايمُ الله ما بلغ من التقيَّة أن يُجعل بها لعبد من عباد الله أن يضل عباد الله). أخرجه الحافظ ابن عساكر (٤ : ١٦٥).

٢ – قالت عائشة: لَمَّا ثَقُلَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَ بلَالٌ يُؤذِنُهُ بالصَّلَاةِ، فَقالَ: مُرُوا أبَا بَكْرٍ أنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ إنَّ أبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أسِيفٌ وإنَّه مَتَى ما يَقُمْ مَقَامَكَ لا يُسْمِعُ النَّاسَ، فلوْ أمَرْتَ عُمَرَ، فَقالَ: مُرُوا أبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بالنَّاسِ فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي له: إنَّ أبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أسِيفٌ، وإنَّه مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لا يُسْمِعُ النَّاسَ، فلوْ أمَرْتَ عُمَرَ، قالَ: إنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أبَا بَكْرٍ أنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ فَلَمَّا دَخَلَ في الصَّلَاةِ وجَدَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ في نَفْسِهِ خِفَّةً، فَقَامَ يُهَادَى بيْنَ رَجُلَيْنِ، ورِجْلَاهُ يَخُطَّانِ في الأرْضِ، حتَّى دَخَلَ المسْجِدَ، فَلَمَّا سَمِعَ أبو بَكْرٍ حِسَّهُ، ذَهَبَ أبو بَكْرٍ يَتَأَخَّرُ، فأوْمَأَ إلَيْهِ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ حتَّى جَلَسَ عن يَسَارِ أبِي بَكْرٍ، فَكانَ أبو بَكْرٍ يُصَلِّي قَائِمًا، وكانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي قَاعِدًا، يَقْتَدِي أبو بَكْرٍ بصَلَاةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ والنَّاسُ مُقْتَدُونَ بصَلَاةِ أبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه. أخرجه البخاري ومسلم.

لماذا جعلها عُمَر شورى؟

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وما جَعَلَها عُمَر شُورَى إلا اقتداءً بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وبأبي بكرٍ، إذ قال: «إنْ أَسْتَخلِفْ فقدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هو خيرٌ مني، وإنْ لم أَستخلِفْ فإنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لم يَسْتَخْلِفْ»[1] فما رَدَّ هذه الكلماتِ أحدٌ. وقالَ: «أَجْعَلُها شُورَى في النَّفرِ الذينَ تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راضٍ»[2]. وقدْ رَضِيَ اللهُ عنْ أكثرَ منهم، ولكنهم كانوا خِيارَ الرِّضا، وشَهِدَ لهم بالأَهْلِيةِ للخِلافةِ.

---

١ – لما أُصيبَ عمرُ بطَعْنةٍ أَبي لُؤْلؤةَ المجوسِيّ وتيقَّنَ الناسُ أنَّه سيموتُ بها، فحثُّوهُ وحضُّوهُ على أن يُسمِّي من يتولَّى أمورَ المسلمينَ من بعدِهِ، فقالَ: "إنْ أسْتخْلِفْ، أي: إنَّ سَمَّيتُ لكم الخليفةَ؛ فقدْ اسْتَخْلَفَ مَنْ هوَ خَيرٌ منّي أبو بَكْرٍ"، أي: لا أتحمل مسؤولية من أستخلفه بعدي "وإنْ أَتْرُكْ، أي: وإنْ امْتَنع عن اختيارِ الخليفةِ، فقدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خيرٌ منّي رسولُ اللهِ ﷺ"، أي: وذلك مِثْل رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لَمْ يحدِّدْ بالاسمِ مَنْ يتوَلَّى المسؤُوليَّةَ بعدَهُ تصْريحًا وإن كانَ أَلْمَحَ إلى ذلك باستِخْلافِ أبي بكرٍ على الصَّلاةِ. رواه البخاري وابن حبان.

٢ – يورد ابن العربي هذه الروايات ليرد على ما زعموه أن عمر عند موته جعل الخلافة شورى في ستة فيهم عليٌّ ليحرم علياً حقَّه فيها ويقطعَ عليه الطريق. كبرت كلمةً تخرج من أفواههم.

بيان موقف ابنِ عَوف

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وأمَّا قولُهم تَحيَّلَ ابنُ عوفٍ حتّى رَدَّها لعثمانَ، فلَئِنْ كانت حِيلةً ولم يكنْ سِواها فلِأنَّ الحوْلَ ليس إليه[1]. وإذا كان عملُ العِبادِ حيلةً أو كان القضاءُ بالحَوْلِ، فالحَوْلُ والقوةُ للهِ. وقدْ عَلِمَ كلُّ أحدٍ ألّا يَلِيَها إلا واحدٌ، فاستبدَّ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ بالأمرِ - بعدَ أنْ أخرجَ نفسَه - على أن يجتهدَ للمسلمين في الأَسَدِّ والأَشَدِّ، فكان كما فَعَلَ، وولّاها مَنِ اسْتَحَقَّها، ولم يكنْ غيرُه أولى منه بها، حسْبَما بيَّنا في (مراتبِ الخلافة) مِنْ (أنوارِ الفَجْرِ)[2] وفي غيرِه مِنْ كُتبِ الحديثِ.

استخلاف عليٍّ

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وقُتِلَ عثمانُ، فلمْ يَبْقَ على الأرضِ أَحَقُّ بها مَنْ عليٍّ. فجاءتْه على قَدَرٍ في وقتِها ومَحلِّها. وبيَّنَ اللهُ على يديْه

---

١ – بل إلى الله. وأن الله هو الموفق لابن عوف وسائر إخوانه الصحابة حتى كانوا في ذلك الموقف على ما أراده الله لهم من صفاء النية وإخلاص القصد والعمل لله وحده، فكان اختيار خليفة عمر في أحاديث الشورى مثلاً أعلى للنفس الإنسانية عندما تكون في أعلى مراتب النبل، والتجرد عن جميع خواطر الهوى. (الخطيب).

٢ – هو التفسير الكبير لابن العربي في ثمانين مجلداً. (الخطيب).

مِنَ الأحكامِ والعلومِ ما شاء اللهُ أنْ يبيِّنَ. وقدْ قالَ عُمَر: «لولا عليٌّ لهلَكَ عُمَرُ»[1].

وظَهَرَ مِنْ فِقْهِهِ وعِلْمِه[2] في قتالِ أهلِ القِبلَةِ - مِنَ اسْتِدْعائِهم ومُناظَرَتِهم وتَرْكِ مُبادَرَتِهم، والتقدُّمِ إليهم قبلَ نَصْبِ الحَربِ معهم ونِدائِه: لا تَبْدَأوا بالحرْبِ، ولا يُتْبَعْ مُوَلٍّ، ولا يُجْهَزْ على جَريحٍ، ولا تُهاجُ امرأةٌ[3]، ولم يَغْنَمْ لهم مالاً. وأمرُه بقبولِ شهادتِهم والصلاةِ خلفَهم، حتى قالَ أهلُ العلمِ: لولا ما جَرَى ما عَرَفْنا حُكْمَ قتالِ أهلِ البَغْيِ[4].

وأمّا خُروجُ طَلْحةَ والزُّبَيْرِ فقدْ تَقَدَّم بيانُه[5].

---

١ – حديث لا يثبت. ولهذا شكك البيهقي في سنده قائلاً «وهذا إن ثبت» (سنن البيهقي٧/٤٤٣). بل الثابت الصحيح في حق عمر قول النبي ﷺ: "أول من يصافحه الحقُّ عمر" ، وقوله "إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به" وقوله "لو كان من بعدي نبي لكان عمر".

٢ – أي عليّ رضي الله عنه.

٣ – يعني لا تخوَّف.

٤ – قال فيهم عليٌّ: إخواننا بَغَوا علينا. وقد أفرد الماوردي للمسلمين البغاة في كتابه الأحكام السلطانية باباً، ومما أورده فيه أنَّ أَحَدَهُمْ قالَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِهِ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، لَكُمْ عَلَيْنَا ثَلَاثٌ: لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللَّهِ، وَلَا نَبْدَؤُكُمْ بِقِتَالٍ، وَلَا نَمْنَعُكُمْ الْفَيْءَ مَا دَامَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَنَا. (الأحكام – الفصل الثاني: قتال أهل البغي).

٥ – بأنه كان خروجاً للتفاهم والتعاون على إقامة الحدود الشرعية في مقتل أمير المؤمنين عثمان.

وأمَّا تَكْفيرُهم للخَلْقِ[1]، فهمُ الكُفَّارُ، وقدْ بيَّنا أحوالَ أهلِ الذُّنوبِ التي ليس منهم عليها شَرٌّ في غيرِ ما كتابٍ، وشَرْحناها في كلِّ بابٍ.

اختصام العباس وعليٍّ عند عُمَرَ

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فإنْ قيلَ: فقدْ قالَ العباسُ في عليٍّ ما رواهُ الأئمةُ[2] أنَّ العباسَ وعَليًّا اخْتَصَما عندَ عُمَرَ في شأنِ أوقافِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[3]، فقال العباسُ لعُمَرَ: يا أميرَ المؤمنينَ، اقْضِ بيْني وبيْنَ هذا الظالمِ الكاذبِ الآثمِ الجائرِ[4]. فقالَ الرَّهْطُ[5] لِعُمَرَ: يا أميرَ المؤمنينَ، اقْضِ بينَهما وأَرِحْ أحدَهما مِنَ الآخرِ. فقالَ عُمَرُ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ الذي بإذْنِه تَقُومُ السماءُ والأرضُ، هلْ تَعْلَمُونَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ

---

١ – أعداء الصحابة.

٢ – ذكر الخصوم هذه القصة ليشيروا من طرف خفي إلى أن الصحابة كانوا يسيء بعضهم الظن في بعض، فهذا العباس وعليّ يستبان، وهما قد أساءا الظن في أبي بكر وعمر. وهدف الخصوم نزع الهيبة عن الصحابة ليتمكنوا بعد ذلك من القولفيهم بما شاءوا من تجريح. وقد تولى ابن العربي الرد على هذه الفرية أيضاً.

٣ – جاءا يختصمان في أموالِ بَنِي النَّضيرِ التي أفاءَها اللهُ على نَبيِّه، ومَن يَتَوَلَّ صرفَها ورعايتَها والقيامَ عليها.

٤ – قال الْمَازِرِيُّ إن هَذِه الألفاظَ ننزه الْقَائِلَ وَالْمقولَ فِيهِ عَنْهَا وننسبها إِلَى أَن بعض الرواة وَهَمَ فِيهَا وأخطأ في نقلها، وَقد أزالها بعضُ الرواة من كتبهم تورعاً، وقيل إنها لو ثبتتْ لكان الْعَبَّاس قَالَهَا إدلالاً عَلَى عليٍّ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَة وَالِده وليس بالضرورة أن يكون صدر من عليٍّ مثلُ هذا الذي قاله العباس.

٥ – هم عُثمانُ، وعَبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ، والزُّبَيرُ، وسَعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ. وكانوا عند عمر وشهدوا هذا التخاصم.

عليهِ وَسَلَّمَ قال: «لا نُورَثُ، ما تَرَكْناه صَدَقَةٌ» يريدُ بذلكَ نفْسَه؟ قالوا: قدْ قالَ ذلكَ. فأقبلَ على العبَّاسِ وعليٍّ فقالَ: أَنْشُدُكما اللهَ، هلْ تعلمانِ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ ذلكَ؟ قالا: نعمْ. قال عُمَرُ: إنَّ اللهَ خَصَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في هذا الفَيْءِ بشيْءٍ لم يُعْطِهِ أحداً غيرَه[1]، فعَمِلَ فيه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حياتَه[2]، ثم تُوُفِّيَ، فقالَ أبو بكرٍ: أنا وليُّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فقَبَضَها سَنَتينِ في إمارتِه فعَمِلَ فيها بما عَمِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. وأنتما تَزْعُمانِ أنَّ أبا بكرٍ كاذِبٌ غادِرٌ خائِنٌ، واللهُ يَعْلَمُ إنَّه لصادِقٌ بارٌّ راشِدٌ تابِعٌ للحَقِّ .... وذَكَرَ الحديثَ[3].

---

١ – وذلك قوله تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}.

٢ – كان ينفقه ﷺ على نِسائِه، وما تَبَقَّى منه جَعَلَه في مالِ اللهِ في بَيتِ المالِ الخاصِّ بالْمُسلِمينَ.

٣ – جاء ذكر هذا التقاضي بين العباس وعليّ عند أمير المؤمنين عمر من حديث مالك بن أوس بن الحدثان النصري في صحيح البخاري.

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: قلْنا: أمَّا قولُ العباسِ لعليٍّ فقولُ الأبِ للابْنِ، وذلكَ على الرأْيِ محمولٌ، وفي سبيلِ المغفرةِ مَبذولٌ، وبَيْنَ الكِبارِ والصِّغارِ - فكيفَ الآباءُ والأبناءُ - مغفورٌ موصولٌ[1].

وأما قولُ عُمَرَ إنهما اعْتَقَدا أنَّ أبا بكرٍ ظالمٌ خائنٌ غادِرٌ[2] وكذلكَ اعْتَقَدا فيه فإنَّما ذلكَ خَبَرٌ عنْ الاختلافِ في نازلةٍ وقَعَتْ مِنْ الأحكامِ، رَأَى فيها

---

١ – اعتذار القاضي ابن العربي عما وقع بين العباس وعليّ هو في إطار حُسن الظن بالصحابة الذي نحن مأمورون به {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} وهذا هو الفرق المسلمين المتَّبعين وبين الروافض الضالين في تنزيه الصحابة عما لا يليق بهم.

٢ – في صحيح البخاري عن عائِشةَ رضي الله عنها أنَّ فاطِمةَ رضي الله عنها بِنتَ النَّبيِّ ﷺ أرْسَلَتْ إلى أبي بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه تَسألُه عَن ميراثِها مِن أبيها رَسولِ اللهِ ﷺ مِمَّا أفاءَ اللهُ عليه، أي: مِمَّا أعْطاه اللهُ مِن مالِ الكُفَّار مِن غَيرِ حَرب وَلا جِهاد بِالمدينةِ مثل أرضِ بَني النَّضيرِ حينَ أجْلاهم، وَفَدكٍ مِمَّا صالَحَ أهلَها على نِصفِ أرضِها وَما بَقِيَ مِن خُمُسِ خَيْبَرَ. وَهُنا رَفَضَ أبو بَكْر رضي الله عنه، وَذَكَرَ لَها قَولَ النَّبيِّ ﷺ: إنَّا مَعاشرَ الأنبياءِ لا نورَثُ، ما تَرَكْنا صَدَقةٌ. وَإنِّي واللهِ لا أُغَيِّر شَيئًا مِن صَدَقةِ رَسولِ اللهِ ﷺ عَن حالِها الَّتي كانَت عليها في عَهْدِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وَلأَعمَلَنَّ فيها بِما عَمِلَ بِه رَسولُ اللهِ ﷺ، فامتَنَعَ أبو بَكْر رضي الله عنه أن يَدفَعَ إلى فاطِمةَ رضي الله عنها مِنها شَيئًا، فَغَضِبَتْ فاطِمةُ رضي الله عنها على أبي بَكْر رضي الله عنه وَهَجَرَتْه وَلَم تُكَلِّمْه حَتَّى تُوُفِّيَتْ. وَعاشَت بَعدَ النَّبيِّ ﷺ سِتَّةَ أشْهُرٍ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ دَفَنَها زَوجُها عَليٌّ رضي الله عنه لَيلًا وَلَم يُعلِم بِها أبا بَكْر رضي الله عنه؛ لأنَّه ظَنَّ أنَّ ذَلك لا يَخْفى عَنه، وَلَيْسَ فيه ما يَدُلُّ على أنَّه لَم يَعلَم بِمَوتِها ولا صَلَّى عليها، وصلَّى عليها عَليٌّ رضي الله عنه، وَكانَ النَّاس يَحتَرِمونه حَياةَ فاطِمةَ رضي الله عنها إكْرامًا لَها، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ استَنكَرَ عَليٌّ وُجوهَ النَّاسِ؛ لأنَّهم قَصَروا عَن ذَلك الِاحتِرامِ لاستِمرارِه على عَدَمِ مُبايَعتِه أبا بَكْر رضي الله عنه، وَكانوا يَعذِرونَه أيَّامَ حَياةِ فاطِمةَ رضي الله عنها عَن تَأخُّرِه عَن ذَلك بِاشتِغالِه بِها وَتَسلِيةِ خاطِرِها، فالْتَمَسَ عَليٌّ رضي الله عنه مُصالَحَةَ أبي بَكْر رضي الله عنه ومُبايَعتَه وَلَم يَكُن يُبايِعُ أبا بَكْر رضي الله عنه تِلْكَ الأشْهُرِ السِّتَّة، وَلَعَلَّ ذَلك إمَّا لاشْتِغالِه بِفاطِمةَ رضي الله عنها، أو اكْتِفاءً بِمَن بايَعَه، فَأرْسَلَ عَليٌّ رضي الله عنه إلى أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه أن

هذا رأياً ورَأَى فيها أولئك رَأياً، فحَكَمَ أبو بكرٍ وعُمَرُ بما رَأَيا، ولم يَرَ العباسُ وعليٌّ ذلكَ. ولكنْ لَمَّا حَكَما سَلَّما لحُكْمِهما كما يُسَلِّمُ لحُكْمِ القاضِي في المخْتَلَفِ فيه. وأمَّا المحكومُ عليه فرَأَى أنَّه قدْ وَهَمَ ولكنْ سَكَتَ وسَلَّمَ[1].

فإنْ قيلَ: إنَّما يَكُونُ ذلكَ في أوَّلِ الحالِ والأمرُ لم يَظْهَرْ إذا كان الحُكْمُ باجتهادٍ، وإنَّما كان هذا الحُكْمُ على مَنْعِ فاطمةَ والعباسِ الميراثَ بقولِ

اتْيِنا وَلا يَأْتِنا أَحَدٌ معك؛ كَراهيةً منه لمَحْضَرِ عُمَرَ رضي الله عنه؛ وَذَلك لِمَا عَرَفوه مِن قُوَّةِ عُمَرَ رضي الله عنه وَصَلابتِه في القَولِ والفِعلِ، فَقالَ عُمَرُ رضي الله عنه لَمَّا بَلَغَه ذَلك لأبي بَكْر: لا واللهِ لا تَدْخُل عليهم وَحدَك. وَلَكِن أبو بَكْر رضي الله عنه قالَ لَه: وَما عَسَيتُ أن يَفعَل بي عَليٌّ وَمَن مَعَه. واللهِ لآتيَنَّهم، فَدَخَلَ عليهم أبو بكر رضي الله عنه فَتَشَهَّد عَليٌّ رضي الله عنه، فَقالَ: إنَّا قَد عَرَفنا فَضْلَك، وَما أعْطاك اللهُ وَلَم نَحْسُدك على الخِلافةِ، وَلَكِنَّك اسْتَبَدَدتَ علينا بِالأمرِ، وَلَم تُشاوِرنا في أمْرِ الخِلافةِ، وَكُنَّا نَرى لقَرابتِنا مِن رَسولِ الله ﷺ نَصيبًا مِن المشاوَرةِ. وَلَم يَزَلْ عَليٌّ رضي الله عنه يَذكُر لَه ذَلك حَتَّى فاضَت عَيْنا أبي بَكْر رضي الله عنه مِن الرِّقَّةِ. وَهُنا رَدَّ أبو بَكْر رضي الله عنه فَحَلَفَ أنَّ قَرابةَ النَّبيِّ ﷺ أحَبُّ مِن أن يَصِلَ رَحِمَه، وَأنَّ ما وَقَعَ مِن التَّنازُعِ في الأموالِ الَّتي تَرَكَها النَّبيُّ ﷺ فَلَم يُقصِّر فيها وَلَم يَترُك أمرًا رَأى النَّبيَّ ﷺ يَصنَعه فيه إلَّا صَنَعَه. فاتَّفَقوا على البَيْعةِ بَعدَ الزَّوالِ، فَلَمَّا صَلَّى أبو بَكْر رضي الله عنه الظُّهْرَ عَلا المِنْبَرَ فَتَشَهَّد وَذَكَر شَأْنَ عَليٍّ رضي الله عنه وَتَخَلُّفَه عَن البَيْعةِ، وَأنَّه قَبِلَ عُذْرَه بالَّذي اعْتَذَرَ إليه ثُمَّ استَغفَرَ. وَتَشَهَّدَ عَليٌّ رضي الله عنه فَعَظَّمَ حَقَّ أبي بَكْر رضي الله عنه وَذَكَرَ فَضلَه وَسابِقَتَه في الإسْلامِ، ثُمَّ مَضى إلى أبي بَكْر رضي الله عنه فَبايَعَه، وَحَدَّث أنَّه لَم يَحمِلْه على الَّذي صَنَعَ مِن التَّأخُرِ حَسَدٌ وَلا إنْكارٌ للَّذي فَضَّلَه الله بِه، وَلَكِن كُنَّا نَرى لَنا في أمْرِ الخِلافةِ نَصيبًا فاسْتَبَدَّ علينا فَغَضِبنا في أنفُسِنا. فَسُرَّ بِذَلك المسلِمونَ وَقالوا: أصَبْتَ. وَكانَ ودُّ المسلِمينَ إلى عَليٍّ رضي الله عنه قَريبًا حينَ راجَعَ الأمرَ بِالمعروفِ وَهوَ الدُّخولُ فيما دَخَلَ النَّاسُ فيه مِن المبايَعةِ.

١ – وكان خلافاً قديماً في واقعة بعينها، فلمَّا تبين لهما الحق انقادا إليه وسلَّما له. وتذكير عمر لهما بهذا إنما هو من باب ذكر فضل الله عليهما بأن دلهما على الصواب.

النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «لا نُورَثُ ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ» وعَلِمَه أزواجُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه العَشَرَةُ وشَهِدُوا به، فبَطَلَ ما قُلْتُمُوه.

تفسير (لا نُورَث، ما تركناه صدقة)

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: قُلْنا: يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ ذلكَ في أوَّلِ الحالِ - والأمرُ لم يَظْهَرْ بَعْدُ[1] - فرَأَيا أنَّ خَبَرَ الواحدِ في معارضةِ القرآنِ والأصولِ والحُكْمِ المشهورِ في الزمنِ لا يُعْمَلُ به حتّى يَتَقَرَّرَ الأمرُ، فلمّا تَقَرَّرَ سَلَّما وانْقادا، بدليلِ ما قدَّمنا مِنَ الحديثِ الصحيحِ إلى آخرِه، فليُنْظَرْ فيه.

وهذا أيضاً ليسَ بِنَصٍّ في المسألةِ لأنَّ قولَه «لا نُورَثُ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ» يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: لا يَصِحُ ميراثُنا، ولا أنَا أهلٌ له، لأنه ليس لي مُلْكٌ ولا تَلَبَّسْتُ بشيءٍ مِنَ الدُّنيا يَنْتَقِلُ إلى غَيْري عنّي.

ويَحتَمِلُ (لا نُورَثُ) حُكْمٌ، وقولُه «ما تَرَكْناه صَدَقَةٌ» حُكْمٌ آخرُ مُعَيَّنٌ أَخْبَرَ به أنه قدْ أَنْفَذَ الصَّدَقَةَ فيما كان بِيَدِهِ مِنْ سَهْمِه الْمُتَصَيِّرِ إليه

---

١ - بل كان ذلك بالفعل في أوَّلِ الحالِ والأمرُ لم يَظْهَرْ بَعْدُ.

بتَسْويغِ اللهِ له وكان مِنْ ذلكَ مخصوصاً لَمّا لم يوجِفِ المسلمونَ عليه بخيلٍ ولا رِكابٍ، وكان له سَهْمُه مَعَ المسلمينَ فيما غَنِمُوا بما أَخَذُوه عُنْوَةً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ «صدقةً» منصوباً على أنْ يكونَ حالاً مِنَ المتروكِ.

إلى هذا أشارَ أصحابُ أبي حَنِيفةَ، وهو ضعيفٌ، وقد بيَّناه في موضِعِه.

بَيْدَ أنَّه يَأْتيكَ مِنْ هذا أنَّ المسألةَ مَجْرَى الخلافِ ومَحَلَّ الاجتهادِ[1]، أنها ليستْ بِنَصٍّ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فتَحْتَمِلُ التَّصويبَ والتَّخْطِئةَ مِنَ المجتهِدِينَ واللهُ أعلمُ.

تنازُل الحَسَن عن الخلافة لمعاوية

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ثم قُتِلَ عليٌّ. قالتِ الرافِضةُ: فعَهِدَ إلى الحَسَنِ، فسَلَّمَها الحَسَنُ إلى مُعاوِيَةَ، فقيل له «مُسَوِّدُ وجوهِ المؤمنينَ»[2] وفَسَّقَتْه جماعةٌ مِنَ الرافضةِ، وكَفَّرَتْه طائفةٌ لأجلِ ذلكَ.

---

١ – ولعل فاطمة وعلياً والعباس رضي الله عنهم أخذوا بهذا الاجتهاد، فهم مأجورون على كل حال. ولاشك أن علياً إذا كان أخذ به، فقد رجع عنه لأنه لم ينفذه في خلافته.

٢ – من عناصر إيمان الرافضة – بل العنصر الأول في إيمانهم – اعتقادهم بعصمة الحسن وأبيه وأخيه، وتسعة من ذرية أخيه. ومن مقتضى عصمتهم – وفي طليعتهم الحسن بعد أبيه – أنهم لا يخطِئون، وأن كل ما صدر عنهم فهو

الجواب عن ذلك

قال القاضي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أمّا قولُ الرافضةِ أنه عَهِدَ إلى الحَسَنِ فباطلٌ، ما عَهِدَ إلى أحدٍ[1]. ولكنَّ البيعةَ للحَسَنِ مُنْعَقَدَةٌ[2]، وهو أحقُّ مِنْ مُعاوِيَة ومِنْ كَثيرٍ غيرِه[3]، وكان خروجُه لمثلِ ما خَرَجَ إليه أبوه مِنْ دُعاءِ

حق، والحق لا يتناقض. وأهم ما صدر عن الحسن بن علي بيعتُه لأمير المؤمنين معاوية، وكان ينبغي لهم أن يدخلوا في هذه البيعة، وأن يؤمنوا بأنها الحق لأنها من عمل المعصوم عندهم. لكن المشاهَد من حالهم أنهم كافرون بها. ومخالفون فيها لإمامهم المعصوم. ولا يخلو هذا من أحد وجهين: فإما أنهم كاذبون في دعوى العصمة لأئمتهم الاثني عشر فينهار دينهم من أساسه، لأن عقيدة العصمة لهم هي أساسه، ولا أساس له غيرها. وإما أن يكونوا معتقدين عصمة الحسن، وأن بيعته لمعاوية هي من عمل المعصوم، لكنهم خارجون على الدين، ومخالفون للمعصوم فيما جنح إليه وأراد أن يلقى الله به. ويتواصون بهذا الخروج على الدين جيلاً بعد جيل وطبقة بعد طبقة، ليكون ثباتهم على مخالفة الإمام المعصوم عن إصرار وعناد ومكابرة وكفر. ولا ندري أي الوجهين يطوّح بهم في مهاوي الهلكة أكثر مما يطوح بهم الوجه الآخر، ولا ثالث لهما. فالذين قالوا منهم إن الحسن "مسوِّد وجوه المؤمنين" لا يُحمل كلامهم إلا على أنه "مسوِّد وجوه المؤمنين بالطاغوت" أما المؤمنون بنبوة جد الحسن فيرون صلحَه مع معاوية وبيعتَه له من أعلام النبوة، لأنها حققتْ ما تنبأ به في سبطه سيد شباب أهل الجنة من أنه سيُصلِح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين كما سيأتي بيانه. وكل الذين استبشروا بهذه النبوة وبهذا الصلح يعدون الحسن "مبيِّض وجوه المؤمنين". (محبُّ الدين الخطيب).

١ – لما أيقن عليٌّ أنه ميتٌ بعد أن طعنه ابنُ مُلجِم شل الله يده (قالوا له: ألا تستخلف علينا. قال: لا، ولكن أترُكُكم إلى ما تركَكم إليه رسول الله. قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئتَ أصلحتَهم، وإن شئتَ أفسدتَهم). رواه أحمد.

٢ – اختاره الصحابة ولم ينصَّ عليه أبوه. وهذا يُبطل قول الإمامية إن الإمام يَنص عليه مَن كان قبله. فهذا الحسن لم ينصَّ عليه عليٌّ بل اختاره المسلمون.

٣ – كان الحسن رضي الله عنه تقياً ورعاً وشجاعاً صبوراً، أدى به ورعه وفضله إلى ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله، وكان رضي الله عنه يشبه جدَّه رسول الله ﷺ من رأسه إلى سرته. وكان عاقلاً حكيماً، محباً للخير فصيحاً،

الفئةِ الباغيةِ إلى الانقيادِ للحقِّ والدخولِ في الطاعةِ، فآلتِ الوساطةُ إلى أنْ تَخَلّى عنِ الأمرِ صيانةً لحقْنِ دماءِ الأمةِ وتصديقاً لقولِ نبيِّ الرحمةِ حيثُ قال على المنبرِ: «ابْني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بينَ فئتينِ عظيمتينِ مِنَ المسلمينَ»[1].

فنَفَذَ الميعادُ، وصَحَّتِ البَيْعةُ لمُعاوِيَةَ، وذلكَ لتحقيقِ رجاءِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فمُعاوِيَة خليفةٌ، وليس بمَلِكٍ.

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فإنْ قيلَ: فقدْ رُوِيَ عنْ سَفينةَ أنَّ النبَّي صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ: «الخلافةُ ثلاثونَ سنةً، ثم تَعودُ مُلْكاً» فإذا

من أحسن الناس منطقاً وبديهة. كما كان جواداً ممدَّحاً، قاسَمَ اللهَ مالَه ثلاثَ مرات، أي تصدَّق بنصف ماله، وخرج من ماله كلِّه مرتين، وكان يُكثر زيارة بيت الله الحرام، ويُروَى أنه حج خمساً وعشرين حَجة ماشياً وإن الإبل لتقاد معه، وكان يقول إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته.

١ – اسْتَقْبَلَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بكَتَائِبَ أمْثَالِ الجِبَالِ، فَقالَ عَمْرُو بنُ العَاصِ: إنِّي لَأَرَى كَتَائِبَ لا تُوَلِّي حتَّى تَقْتُلَ أقْرَانَهَا، فَقالَ له مُعَاوِيَةُ: أيْ عَمْرُو، إنْ قَتَلَ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ، مَن لي بأُمُورِ النَّاسِ؟ مَن لي بنِسَائِهِمْ؟ مَن لي بضَيْعَتِهِمْ؟ فَبَعَثَ إلَيْهِ رَجُلَيْنِ مِن قُرَيْشٍ مِن بَنِي عبدِ شَمْسٍ: عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ سَمُرَةَ، وعَبْدَ اللَّهِ بنَ عَامِرِ بنِ كُرَيْزٍ، فَقالَ: اذْهَبَا إلى هذا الرَّجُلِ، فَاعْرِضَا عليه، وقُولَا له: واطْلُبَا إلَيْهِ. فأتَيَاهُ، فَتَكَلَّمَا وطَلَبَا إلَيْهِ، وقالَا: فإنَّه يَعْرِضُ عَلَيْكَ كَذَا وكَذَا، ويَطْلُبُ إلَيْكَ ويَسْأَلُكَ قالَ: فمَن لي بهذا؟ قالَا: نَحْنُ لكَ به، فَما سَأَلَهُما شيئًا إلَّا قالَا: نَحْنُ لكَ به، فَصَالَحَهُ. فَقالَ الحَسَنُ: ولقَدْ سَمِعْتُ أبَا بَكْرَةَ يقولُ: رَأَيْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ علَى المِنْبَرِ والحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ إلى جَنْبِهِ، وهو يُقْبِلُ علَى النَّاسِ مَرَّةً وعليه أُخْرَى، ويقولُ: إنَّ ابْنِي هذا سَيِّدٌ، ولَعَلَّ اللَّهَ أنْ يُصْلِحَ به بيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المسْلِمِينَ. رواه البخاري في صحيحه.

عدَدْنا مِنْ وِلايةِ أبي بكرٍ إلى تسليمِ الحسنِ كانتْ ثلاثينَ سنةً لا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ يوماً، قلْنا:

خذْ ما تراهُ ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ بِهِ في طَلْعةِ البَدْرِ ما يُغنِيكَ عنْ زُحَلِ[1]

هذا الحديثُ[2] في ذِكْرِ الحَسَنِ بالبِشارةِ له والثَّناءِ عليه لِجَرَيانِ الصُّلحِ بينَ يَدَيهِ، وتسليم الأمرِ لمُعاوِيَة عَقْدٌ منه له[3]. وهذا حديثٌ لا يَصِحُّ[4]. ولو صَحَّ فهو مُعارِضٌ لهذا الصُّلحِ المتَّفَقِ عليه، فوَجَبَ الرجوعُ إليه.

---

١ – البيت للمتنبي، قال العُكبري في شرحه: وهذا من قول الحكيم: العيان شاهدٌ لنفسه، والإخبارُ يدخل عليه الزيادة والنقصان، فأولى ما أخذ ما كان دليلًا على نفسه. وقد استشهد به ابن العربي تأكيداً على أهمية الأخذ بما صح وطرح ما سواه.

٢ – يعني حديث "إن ابني هذا".

٣ – أي عقد بيعة من الحسن لمعاوية. وكان ذلك في موضع يقال له مسكن على نهر دجيل سنة إحدى وأربعين. فسُمي ذلك العامُ عامَ الجماعة لاجتماع المسلمين بعد الفُرقة، وتفرغهم للحروب الخارجية والفتوح ونشر دعوة الإسلام بعد أن عطَّل قتلةُ عثمان سيوفَ المسلمين عن هذه المهمة نحو خمس سنوات كان يستطيع المسلمون أن يسجلوا فيها أمجاداً لا يستطيع غيرهم مثلها في خمس قرون. ولله في كل شيء حكمة. (الخطيب).

٤ – يعني حديث «الخلافةُ ثلاثونَ سنةً ثم تَعود مُلكاً» وهذا الحديث صححه أحمد، لكن الصواب أن الحديث لم يصحَّ. ومدار الحديث على سعيد بن جهمان، وهو ضعيف عند أكثر العلماء. وسفينة لا تصحُّ صحبته فهو مولى فارسي، اسمه مجهول ادعى أنه كان خادم النبي ﷺ. وليس من دليل على صحبته إلا ادعاءه هذا. ولو كان خادمَ النبي ﷺ لكان له ذكر بين الصحابة، فأين هم عنه؟

فإنْ قيلَ: ألم يكنْ في الصحابةِ أَقْعَدُ[1] بالأمرِ مِنْ مُعاوِيَة؟

قلنا: كثير[2].

فضائل مُعاوِيَة

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ولكنَّ مُعاوِيَة اجتَمَعَتْ فيه خِصالٌ: وهي أنَّ عُمَر جَمَعَ له الشَّامَاتِ كلَّها وأَفْرَدَه بها، لِمَا رَأَى مِنْ حُسْنِ

---

١ – يعني أقرب إلى الخلافة يقوم بأمرها ويكفي المسلمين شؤونها.

٢ – مثل سعد بن أبي وقاص المجاهد الفاتح أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب عالم الصحابة الثابت على قدم المصطفى في جليل الأمور ودقيقها، وغيرهما من هذه الطبقة وقريب منها، وهؤلاء هم الذين ترك لهم الحَكَمان – أبو موسى وعمرو – أمر الإمامة بعد حرب صفين ليروا فيها رأيهم، فلما رأوا اجتماع الأمة كلها على معاوية دخلوا كلهم في إمامته وبايعوه. بعد أن كانوا معتزلين الفتنة من بعد عثمان (انظر فتح الباري ١٣ : ٥٠). ومعاوية نفسه يعرف للناس أقدارهم؛ فقد جاء في البداية والنهاية (٨ : ١٣٤) أن معاوية خطب فقال: "يا أيها الناس، ما أنا بخيركم، وإنَّ منكم لمن هو خير مني: عبدُ الله بن عمر، وعبدُ الله بن عمرو وغيرُهما من الأفاضل. ولكن عسى أن أكون أنفعَكم ولاية، وأنكاكم في عدوكم، وأدرَّكم حلباً". (الخطيب).

سِيرتِهِ وقيامِهِ بحمايةِ البَيْضةِ وسَّدِ الثغورِ[1] وإصلاحِ الجُندِ والظُّهورِ على العَدُوِّ[2] وسياسةِ الخَلْقِ[3].

---

١ – وقد بلغ من همته وعظيم عنايته بذلك أن أرسل يهدد ملك الروم – وهو في معمعة القتال مع علي في صفّين – وقد بلغه أن ملك الروم اقترب من الحدود في جنود عظيمة، فكتب إليه يقول: "والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك، لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك مع جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت". فخاف ملك الروم وانكف. البداية والنهاية ٨:١١٩. (الخطيب).

٢ – في البر والبحر، فكانت رايات الإسلام تخترق الآفاق بأيدي جنده ممثلة العزة التي أرادها الله لدينه ورسالة رسوله وللمؤمنين بها. وكما أن فتح مصر ودخولها في الإسلام والعروبة من عمل عمرو بن العاص وحده فإن تأسيس الأسطول الإسلامي والفتوح البحرية الأولى من عمل معاوية وحده. ومما ينبغي للمشتغل بتاريخ العروبة والإسلام أن يعلمه أن معاوية مفطور على سجية السيادة والقيادة وصناعة الحكم، أخرج ابن كثير في التاريخ (٨ : ١٣٥) أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "ما رأيت أحداً أسود من معاوية" – يعني جدير بالسيادة والقيادة – قال جبلة بن سحيم قلت ولا عمر؟ قال "كان عمر خيرا منه، وكان معاوية أسود منه". وتقدم قول عبد الله بن العباس "ما رأيت رجلا كان أخلق بالمُلْك من معاوية". (الخطيب).

٣ – قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (منهاج السنة ٣ : ١٨٥): لم يكن من ملوك الإسلام ملِك خيراً من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملِك من الملوك خيراً منهم في زمن معاوية، إذا نسبت أيامه إلى من بعده. وإذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل. وقد روى أبو بكر الأثرم عن قتادة قال: لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم: هذا المهدي. وقال: كنا عند الأعمش فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه؟ قال: لا والله بل في عدله. وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبي إسحاق السبيعي أنه ذكر معاوية فقال: لو أدركتموه أو أدركتم أيامه لقلتم: كان المهدي. وهذه الشهادة من هؤلاء الأئمة الأعلام لأمير المؤمنين معاوية صدى استجابة الله دعاء نبيه لهذا الخليفة الصالح يوم قال "اللهم اجعله هادياً مهديا واهد به" وهو من أعلام النبوة. (الخطيب)

وقد شُهِدَ له في صحيحِ الحديثِ بالفِقْهِ[1]. وشُهِدَ بخِلافتِهِ في حديثِ أُمِّ حَرامٍ[2] أنَّ ناساً مِنْ أُمَّتِهِ يَرْكبونَ ثَبَجَ البحرِ الأخضرِ مُلوكاً على الأَسِرَّةِ أو مِثْلَ الملوكِ على الأَسِرَّةِ، وكانَ ذلكَ في وِلايَتِه[3].

ويُحْتَمَلُ أنْ تكونَ مراتبُ في الولايةِ: خلافةٌ، ثم مُلْكٌ. فتكونُ ولايةُ الخلافةِ للأربعةِ[4]، وتكونُ ولايةُ الْمُلكِ لابتداءِ مُعاوِيَة. وقدْ قالَ اللهُ في داودَ وهو خيرٌ مِنْ كلِّ مُعاوِيَةَ: {وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} فجَعَلَ النُّبُوَّةَ مُلْكاً. فلا تَلْتَفِتوا إلى أحاديثَ ضَعُفَ سَنَدُها ومعناها[5].

---

١ – في كتاب مناقب الصحابة من صحيح البخاري أن ابن عباس قيل له: "هل لك في أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة. فقال: إنه فقيه". وكان لأهل الشام كالإمام مالك لأهل المدينة، فعن ربيعة بن يزيد الإيادي أحد الأئمة الأعلام عن عبد الرحمن بن أبي عميرة أن النبي قال لمعاوية: "اللهم علِّمه الكتابَ والحسابَ وَقِهِ العذابَ". (الخطيب).

٢ – أمُّ حِرام بنت مِلْحان صحابيةٌ من الأنصار من أهل قباء، كان النبي ﷺ إذا ذهب إلى قباء استراح عندها، وهي خالة خادِمِه أنس بن مالك.

٣ – في صحيح البخاري: دَخَلَ رَسول اللهِ ﷺ علَى أم حِرام ابْنَةِ مِلْحَانَ، فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا، ثُمَّ ضَحِكَ فَقالَتْ: لِمَ تَضْحَكُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ فَقالَ: نَاسٌ مِن أُمَّتِي يَرْكَبُونَ البَحْرَ الأَخْضَرَ في سَبيلِ اللَّهِ، مَثَلُهُمْ مَثَلُ المُلُوكِ علَى الأَسِرَّةِ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، قالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا منهمْ، ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ، فَقالَتْ له مِثْلَ – أَوْ مِمَّ – ذلكَ، فَقالَ لَهَا مِثْلَ ذلكَ، فَقالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، قالَ: أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَلَسْتِ مِنَ الآخِرِينَ، قالَ: قالَ أَنَسٌ: فَتَزَوَّجَتْ عُبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ فَرَكِبَتِ البَحْرَ مع بنْتِ قَرَظَةَ، فَلَمَّا قَفَلَتْ: رَكِبَتْ دَابَّتَهَا، فَوَقَصَتْ بهَا، فَسَقَطَتْ عَنْهَا، فَمَاتَتْ. وكان ذلك في عهد معاوية رضي الله عنه.

٤ – أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ.

٥ – يشير إلى حديث سفينة «الخلافةُ ثلاثونَ سنةً ثم تَعود مُلكاً» الذي يُخرج معاوية من الخلافة.

ولو اقْتَضَتِ الحالُ النَّظَرَ في الأمورِ لكانَ - واللهُ أعلمُ - رأيٌ آخَرُ للجُمهورِ، ولكنِ انْعَقدَتِ البَيْعةُ لمُعاوِيَةَ بالصِّفَةِ التي شاءها اللهُ، على الوجْهِ الذي وَعَدَ به رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مادِحاً له راضِياً عنه راجِياً هدنةَ الحالِ فيه[1]، لقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «ابْني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بينَ فِئتيْنِ عظيمتيْنِ مِنَ المسلِمينَ».

وقدْ تَكَلَّمَ العُلماءُ في إمامَةِ المفْضولِ مع وجودِ مَنْ هو أفضلُ منه[2]، فليستِ المسألةُ في الحدِّ الذي تَجْعَلُه فيه العامةُ، وقدْ بيَّنَّاها في مَوْضِعِها.

قصة قَتل مُعاوِيَةَ لحُجْر بن عَدِي

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فإنْ قيل: قَتَلَ حُجْرَ بنَ عَدِيٍّ[3] - وهو مِنَ الصحابةِ مَشْهورٌ بالخيرِ - صَبْراً أسيراً بقولِ زيادٍ، وبَعَثَتْ إليه

---

١ - يعني في الحسن بن عليّ رضي الله عنهما.

٢ - تجوز إمامة المفضول وتصح بيعته، ولا يكون وجود الأفضل مانعاً من إمامة المفضول إذا لم يكن مقصرّاً عن شروط الإمامة، كما يجوز - في ولاية القضاء - تقليد المفضول مع وجود الأفضل لأن زيادة الفضل مبالغة في الاختيار وليست معتبرة في شروط الاستحقاق. (الخطيب).

٣ - حُجر بن عدي الكندي عدَّه البخاري وآخرون من التابعين. وعده البعض الآخر من الصحابة. وكان من شيعة عليّ في الجمل وصفّين. وروى ابنُ سيرين أن زياداً - وهو أمير الكوفة - خطب خطبة أطال فيها، فنادى حُجرُ بنُ عدي "الصلاةَ" فمضى زيادٌ في خطبته، فحَصَبَه حُجْرٌ وحصبه آخرون معه. فكتب زيادٌ إلى معاوية

عائشةُ في أمرِه فوجدَتْه قدْ فاتَ بقتلِه. قلْنا: قدْ عَلِمْنا قتْلَ حُجْرٍ كلُّنا واختلفْنا: فقائلٌ يقولُ قَتَلَه ظُلْماً وقائلٌ يقولُ قَتَلَه حقًّا. فإنْ قيلَ: الأصلُ قَتْلُه ظُلماً إلا إذا ثَبَتَ عليه ما يوجِبُ قَتْلَه، قلْنا: الأصلُ أنَّ قَتْلَ الإمامِ بالحقِّ، فمَنِ ادَّعى أنه بالظُّلم فعَلَيه الدليلُ، ولو كان ظُلماً مَحْضاً[1] لَمَا بَقِيَ بيتٌ إلا لُعِنَ فيه مُعاوِيَةُ.

وهذه مَدينةُ السَّلامِ[2] دارُ خِلافةِ بَني العَبّاسِ - وبينَهم وبينَ بَني أُمَيَّةَ ما لا يَخْفى على الناسِ - مكتوبٌ على أبوابِ مساجِدِها: «خيرُ الناسِ بعدَ

يشكو بَغي حُجر على أميره في بيت الله، وعدَّ ذلك من الفساد في الأرض. فكتب معاويةُ إلى زيادٍ أن سرّح به إليَّ. فلما جيء به إلى معاويةَ أمر بقتله. فالذين يريدون أن معاوية قتله بحق يقولون: ما من حكومة في الدنيا تعاقِب بأقل من ذلك مَن يحصب أميرَه وهو قائم يخطب على المنبر في المسجد الجامع، مندفعاً بعاطفة الحزبية والتشيع. والذين يعارضونهم يذكرون فضائل حُجر ويقولون: كان ينبغي لمعاوية ألا يخرج عن سجيته من الحِلم وسعة الصدر لمخالفيه. ويجيبهم الآخرون بأن معاوية يملك الحلمَ وسعةَ الصدر عند البغي عليه في شخصه، فأما البغي على الجماعة في شخصِ حاكمِها وهو على منبر المسجد فهو ما لا يملك معاويةُ أن يتسامح فيه، ولاسيما في مثل الكوفة التي أخرجتِ العددَ الأكبر من أهل الفتنة الذين بَغوا على عثمان بسبب مثل هذا التسامح، فكبدوا الأمة من دمائها وسمعتها... تضحياتٍ غالية كانت في غنى عنها لو أن هيبة الدولة حفظت بتأديب عدد قليل من أهل الرعونة والطيش في الوقت المناسب. وكما كانت عائشة تود لو أن معاوية شمل حُجراً بسعة صدره، فإن عبد الله بن عمر كان يتمنى مثل ذلك. والواقع أن معاوية كان فيه من حِلم عثمان وسجاياه، إلا أنه في مواقف الحكم كان يتبصر في عاقبة عثمان وما جرَّ إليه تمادي الذين اجترؤوا عليه. (الخطيب).

١ - محض: خالص لا شك فيه.

٢ - بغداد.

رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أبو بكرٍ، ثم عُمَر، ثم عُثْمانُ، ثم عَلِيٌّ، ثم مُعاوِيَةُ خالُ المؤمنينَ رضِيَ اللهُ عنْهم»[1].

ولكنَّ حُجْراً - فيما يُقالُ - رَأَى مِنْ زِيادٍ أموراً مُنْكَرةً، فحَصَبَه[2] وخَلَعَه، وأرادَ أنْ يُقيمَ الخَلْقَ للفتنةِ، فجَعَلَه مُعاوِيَة ممنْ سَعَى في الأرضِ فَساداً.

وقدْ كَلَّمَتْه عائشةُ في أمرِه حينَ حَجَّ، فقالَ لها: دَعِيني وحُجْراً حتى نَلْتَقِيَ عندَ اللهِ. وأنتمْ مَعْشَرَ المسلمينَ أوْلى أنْ تَدَعُوهما حتّى يَقِفا بينَ يَدَيِ اللهِ معَ صاحبِهما العَدْلِ الأَمينِ المصْطَفى الْمَكينِ، وما أنتمْ ودُخُولَكم حيثُ لا تَشْعرونَ، فما لَكُم لا تَسْمعونَ؟

زعمُ أن مُعاوِيَةَ سَمَّ الحَسَن

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فإنْ قيلَ: قدْ دَسَّ على الحَسَنِ مَنْ سَمَّه[3].

---

١ – معاوية خال المؤمنين لأنه أخو أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان المشتهرة بكنيتها أم حبيبة.

٢ – رماه بالحصباء (صغار الحصى والحجارة).

٣ – نُقِل أن الحسن – رضي الله عنه – مات مسموماً، واختلفوا في مَن سمّه؛ فقيل معاوية – رضي الله عنه – وقيل يزيد بن معاوية، وقيل زوجته، ولا يثبت شيء من ذلك. قال ابن تيمية – رحمه الله – في منهاج السنة: وَأَمَّا

قلْنا: هذا محالٌ مِنْ وَجْهينِ: أحدُهما أنَّه ما كانَ لِيَتَّقِيَ مِنَ الحَسَنِ بَأْساً وقدْ سَلَّمَ الأمرَ. الثاني أنَّه أَمْرٌ مُغَيَّبٌ لا يَعْلَمُه إلا اللهُ فكيفَ تَحْمِلونَه بغيرِ بَيِّنَةٍ على أحدٍ مِنْ خَلْقِه في زمانٍ مُتباعِدٍ لم نَثِقْ فيه بنَقْلِ ناقلٍ، بيْنَ أَيْدِي قومٍ ذَوِي أهواءٍ، وفي حالِ فِتنةٍ وعَصَبيةٍ، يَنْسِبُ كلُّ واحدٍ إلى صاحبِه ما لا يَنْبَغي، فلا يُقْبَلُ منها إلا الصّافي، ولا يُسْمَعُ فيها إلا مِنَ العدْلِ الصَّميمِ.

تمهيد مُعاوِيَة لولاية يزيد

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فإنْ قيلَ: فقدْ عَهِدَ إلى يزيدَ وليسَ بأهْلٍ. وجَرَى بينَه وبينَ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ وابنِ الزُّبَيْرِ والحَسَنِ ما نصُّه عنْ وَهْبِ بنِ جَريرِ بنِ حازمٍ[1] عنْ أبيه وعنْ غيرِه: لَمّا أَجْمَعَ مُعاوِيَةُ أنْ يُبايعَ لابنِه يزيدَ حَجَّ، فقَدِمَ مَكَّةَ في نحوِ ألفِ رجلٍ. فلمَّا دَنا مِنَ المدينةِ خَرَجَ ابنُ عُمَرَ وابنُ الزُّبَيْرِ وعبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ، فلما قَدِمَ مُعاوِيَةُ

قَوْلُهُ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ سَمَّ الْحَسَنَ فَهَذَا مِمَّا ذَكَرَهُ بَعْضُ النَّاسِ، وَلَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ بِبَيِّنَةٍ شَرْعِيَّةٍ، أَوْ إِقْرَارٍ مُعْتَبَرٍ، وَلَا نَقْلٍ يُجْزَمُ بِهِ. وَهَذَا مِمَّا لَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِهِ، فَالْقَوْلُ بِهِ قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ.

١ – وهب بن جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله بن شجاع، حافظ صدوق إمام ثقة. ولد بعد الثلاثين ومائة. وهو من رواة الحديث. وسوف يروي عنه ابن العربي ثلاثة أخبار منسوبة إليه في شأن تولية معاوية لابنه يزيد. ثم يقوم ابن العربي بالرد عليها من خلال الروايات الصحيحة التي تعارضها. وواضح أن هناك من وضعها ونسبها إليه كي تروج وتنجح في تشويه صورة معاوية والصحابة الذين حضروا هذه الواقعة.

المدينةَ صَعِدَ المنبرَ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه، ثمَّ ذَكَرَ ابنَه يَزيدَ فقالَ: مَنْ أحقُّ بهذا الأمرِ منه؟[1]

ثمَّ ارْتَحَلَ، فقدِمَ مَكَّةَ فقَضَى طَوافَه، ودَخَلَ منزلَه، فبَعَثَ إلى ابنِ عُمَرَ، فتَشَهَّدَ وقالَ: «أمّا بعدُ يابنَ عُمَرَ، فقدْ كنتَ تُحَدِّثُني أنَّكَ لا تُحِبُّ أنْ تَبيتَ ليلةً سوداءَ ليسَ عليكَ أميرٌ. وإني أُحَذِّرُكَ أنْ تَشُقَّ عصا المسلمينَ، وأنْ تَسْعى في فسادِ ذاتِ بينِهم».

فلمّا سَكَتَ تَكَلَّمَ ابنُ عُمَرَ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه ثمَّ قالَ: «أمَّا بعدُ فإنه قدْ كانت قَبْلَكَ خُلَفاءُ لهم أبناءٌ ليس ابنُك بخيرٍ منهم، فلمْ يَرَوا في أبنائهم ما رأيتَ في ابنِكَ، ولكنَّهم اختارُوا للمسلمينَ حيثُ عَلِموا الخِيارَ. وإنَّكَ

---

١ – اعتذر الأستاذ محب الدين الخطيب عن تولية معاوية لابنه يزيد بقوله إن مبدأ الشورى في انتخاب الخليفة أفضل بكثير من مبدأ ولاية العهد لكن معاوية كان يعلم بينه وبين نفسه أن فتح باب الشورى في انتخاب من يخلفه سيحدث في الأمة الإسلامية مجزرة لا ترقأ فيها الدماء إلا بفناء كل ذي أهلية في قريش لولاية شيء من أمور هذه الأمة. وهذا هو أيضاً رأي ابن خلدون في مقدمته. وهناك غيرهما قال إن معاوية قد أخطأ بتولية الخلافة لابنه يزيد، فقد كان في المسلمين من هو أحق بها وأصلح للأمة منه، وأنه بذلك قد عطل مبدأ عظيماً من مبادئ الإسلام وهو مبدأ الشورى الذي وضعه الله للمسلمين {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}.

تُحَذِّرُني أنْ أَشُقَّ عَصَا المسلمينَ، ولم أكُنْ لأَفْعَلَ، وإنَّما أنا رَجُلٌ مِنَ المسلمينَ، فإذا اجْتَمَعوا على أمرٍ فإنَّما أنا واحدٌ منهم». فخَرَجَ ابنُ عُمَرَ[1].

وأرسلَ إلى عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ، فتَشَهَّدَ ثمَّ أَخَذَ في الكلامِ فقَطَعَ عليه كلامَه، فقالَ: «إنَّكَ واللهِ لوَدِدْتَ أنَّا وَكَلْناكَ في أمرِ ابنِكَ إلى اللهِ. وإنَّا واللهِ لا نَفْعَلُ. واللهِ لَتَرُدَّنَّ هذا الأمرَ شُورَى في المسلمينَ أو لَتَفِرَنَّها عليكَ جَذَعَةً[2]» ثم وَثَبَ فَقامَ. فقالَ مُعاوِيَةُ: «اللّهُمَّ اكْفِنيه بما شِئتَ». ثم قالَ: «على رِسْلِكَ[3] أيُّها الرجلُ، لا تُشْرِفَنَّ[4] لأهلِ الشامِ، فإني أخافُ أنْ يَسْبقوني بنفسِك[5]، حتى أُخْبِرَ العَشِيَّةَ أنَّكَ قدْ بايَعْتَ، ثمَّ كُنْ بعدَ ذلكَ على ما بَدَا لكَ مِنْ أمرِكَ».

---

١ – عن ابن عمر أن أخته أم المؤمنين حفصة نصحت له بأن يسرع بالذهاب للبيعة وقالت: اِلْحَقْ، فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة. (البخاري – المغازي).

٢ – لتفرنها عليك جذعة: عبارة يقصد منها أن الفتنة تنكشف عليك في أشد حالاتها.

٣ – يعني تمهَّلْ ولا تعجلْ في أمرك.

٤ – لا تظهر لهم.

٥ – خاف عليه إن هو أظهر لأهل الشام رأيه هذا أن يقتلوه.

ثمَّ أَرْسلَ إلى ابنِ الزُّبَيْر فقال: «يابْنَ الزُّبَيْر، إنما أنتَ ثَعْلبٌ رَوَّاغٌ[1] كلَّما خَرَجَ مِنْ جُحْرٍ دَخَلَ في آخَرَ، وإنَّكَ عَمَدْتَ إلى هذينِ الرَّجُلينِ[2] فنَفَخْتَ في مَناخِرِهما[3]». فقالَ ابنُ الزُّبَيْر: «إنْ كنتَ قدْ مَلِلتَ الإمارةَ فاعتزلْها، وهَلُمَّ ابنَكَ فلنبايعه. أرأيتَ إذا بايعتُ ابنَكَ معَكَ لأيِّكما نسمعُ، لأيِّكما نُطيعُ؟ لا تجتمعُ البَيْعةُ لكما أَبَداً[4]». ثمَّ قامَ. فخَرَجَ مُعاوِيَةُ فصَعِدَ المِنْبَرَ فقالَ: إنّا وجَدْنا أحاديثَ الناسِ ذاتَ عَوارٍ، وزَعَمُوا أنَّ ابنَ عُمَرَ وابنَ الزُّبَيْر وابنَ أبي بكرٍ لم يُبايِعُوا ليَزيدَ، وهمْ قدْ سَمِعوا وأطاعُوا وبايَعُوا له.

فقالَ أهلُ الشامِ: لا واللهِ: لا نَرْضَى حتّى يُبايِعوا على رءوسِ الأشهادِ، وإلا ضَرَبْنا أعناقَهم[5].

---

١ – كَثيرُ الخِداعِ والْمَكْرِ.

٢ – ابن عمر وابن أبي بكر.

٣ – يعني شجعتهما على العصيان.

٤ – بيعة الخلافة وبيعة ولاية العهد معاً. وهو أمر لم يحدث من قبل. ثم صار واقعاً حتى إنهم كانوا يعقدون بيعتين لولاية العهد كما فعل عبدالملك بن مروان حينما عقد البيعة لولديه الوليد وسليمان معاً في وقت واحد.

٥ – وهو خبر يدل على مقدار القوة والسلطة التي وصل إليها أهل الشام في ذلك الوقت.

فَقالَ: «مَهْ، سبحانَ اللهِ، وما أَسْرَعَ الناسَ إلى قُرَيشٍ بالشَّرِّ، لا أَسمعْ هذه المقالةَ مِنْ أَحَدٍ بَعْدَ اليومِ»[1] ثمَّ نَزَلَ. فقالَ النَّاسُ: بايَعوا. ويَقُولونَ همْ: لم نُبايِعْ. ويقولُ الناسُ: قدْ بايَعْتُم.

الرواية الثانية المنسوبة لوهب

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ورَوَى وَهْبٌ مِنْ طريقٍ آخَرَ قالَ: خَطَبَ مُعاوِيَةُ فذَكَرَ ابنَ عُمَرَ فقالَ: «واللهِ ليُبايِعَنَّ أو لأَقْتُلَنَّه»[2] فخَرَجَ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ إلى أَبيه وسارَ إلى مَكَّةَ ثلاثاً وأَخْبَرَه، فبَكَى ابنُ عُمَرَ. فبَلَغَ الخبرُ إلى عبدِ اللهِ بنِ صفوانَ[3]، فدَخَلَ على ابنِ عُمَرَ فقالَ: أَخَطَبَ هذا بِكَذا؟ قالَ: نعمْ. قالَ فما تريدُ؟ أتريدُ قتالَه؟ قالَ: يابْنَ صفوانَ، الصبرُ خيرٌ مِنْ ذلكَ. فقالَ ابنُ صفوانَ: واللهِ لو أرادَ ذلكَ

---

١ – وهذا من عزم معاوية رضي الله عنه وحزمه.

٢ – يرى المرحوم محب الدين الخطيب أن هذه الأخبار المنسوبة لوهب بن جرير بن حازم هناك من اخترعها وأضافها إليه يكذبون كذباً مفضوحاً، حتى قال عن واحد من هذه الأخبار: وأظنه مصنوعاً في المصنع الذي خرج منه الخبران السابقان. وأنها أخبار مكذوبة على معاوية من خصومه.

٣ – عبد الله بن صفوان تابعي من رواة الحديث النبوي وأحد كبار أنصار عبد الله بن الزبير، اسمه عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحي المكي ابن الصحابي صفوان بن أمية بن خلف، كان أكبر ولد أبيه، ولد في حياة النبي ﷺ لكنه لم يدركه، روى الحديث عن أبيه وعمر بن الخطاب وأبي الدرداء وحفصة. وكان سيداً شريفاً مطاعاً بين قومه، حليماً يحتمِل الأذى. قُتل مع عبدالله بن الزبير سنة ٧٣.

لأقاتِلَنَّه. فقَدِمَ مُعاوِيَةُ مَكَّةَ فنَزَلَ ذا طُوَى[1]، وخَرَجَ إليه عبدُ اللهِ بنُ صفوانَ فقالَ: أنتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَقْتُلُ ابنَ عُمَرَ إنْ لم يُبايِعْ لابنِكَ؟ قال: أنا أقتلُ ابنَ عُمَرَ؟ إني واللهِ لا أقتلُه.

الرواية الثالثة المنسوبة لوهب

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ورَوَى وهبٌ مِنْ طريقٍ ثالثٍ قالَ: إنَّ مُعاوِيَةَ لَمَّا راحَ عنْ بَطْنِ مُرٍّ[2] قاصداً إلى مَكَّةَ قالِ لصاحِبِ حَرَسِه: لا تَدَعْ أَحَداً يَسيرُ معي إلا مَنْ حَمَلْتَه. فخَرَجَ يَسيرُ وَحْدَه حتّى إذا كان وسطَ الأراكِ لَقِيَه الحُسَيْنُ بنُ عليٍّ، فوقف وقال: مرحباً وأهلاً بابنِ بنتِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ سيدِ شبابِ المسلمين. دابَّةً لأبي عبدِ اللهِ يركبُها.

---

١ – ذو طوى وادٍ شمال المسجد الحرام بمكة المكرمة، يُعرف الآن معظمه بالزاهر وهو موضع مبيت النبي ﷺ قبل الدخول إلى مكة، حيث ثبت أن النبي ﷺ عند ذهابه إلى مكة يبيت في وادي ذي طوى حتى إذا أصبح اغتسل من بئرها ودخل مكة.

٢ – وادي فاطمة يسمى قديماً بـ (بطن مرّ) و (مرّ الظهران) وادٍ كبير من أودية تهامة يقع في منطقة مكة المكرمة، ويجري الوادي من الشرق إلى الغرب، وهو واد خصب وفير الماء وبه العديد من القرى أهمها الجموم.

فأُتِيَ ببِرْذَوْنٍ[1] فتحوَّلَ عليه. ثم طَلَعَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ[2]، فقالَ: مرحباً بابنِ شيخِ قريشٍ وسيِّدِهم وابنِ صِدِّيقِ هذه الأمَّةِ. دابَّةً لأبي محمدٍ يركبُها. فأُتِيَ ببِرْذَوْنٍ فركِبَه. ثم طَلَعَ ابنُ عُمَرَ فقالَ: مَرْحباً وأهلاً بصاحبِ رسولِ اللهِ وابنِ الفاروقِ وسيِّدِ المسلمينَ، ودعا له بدابَّةٍ فرَكِبَها. ثم طَلَعَ ابنُ الزُّبَيْرِ فقالَ: مرحباً وأهلاً بابنِ حَوارِيِّ رسولِ اللهِ وابنِ الصِّدِّيقِ[3] وابنِ عمَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، ودَعا له بدابَّةٍ فركِبَها، ثمَّ أقبلَ يَسيرُ بينَهم لا يُسايِرُه غيرُهم حتّى دَخَلَ مكةَ[4].

ثمَّ كانوا أوَّلَ داخلٍ وآخِرَ خارجٍ ليس في الأرْضِ صَباحٌ إلا لهم فيه حِباءٌ وكَرامةٌ[5]، ولا يَعْرِضُ لهمْ بذكْرِ شيءٍ مما هو فيه حتّى قَضَى نُسُكَه وتَرَحَّلَتْ

---

١ – البرذون نوع من الدواب يختص بالأحمال الثقيلة. وهو ينتج عن تزاوج الحمار بالفرس، على عكس البغل وهو ينتج عن تزاوج الحصان بالأتان وهي أنثى الحمار.

٢ – شكك الأستاذ محب الدين الخطيب في هذا فقال: نحن نعلم من الخبر الأول عن وهب أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان في المدينة، وكان مع الذين استقبلوا معاوية عند وصوله إليها من دمشق، فما الذي طار به إلى مكة حتى صار في مستقبليه عند وصوله إليها؟ حقاً إن الذين يكذبون على معاوية أغبياء لا يجيدون صناعة الكذب. ا.هـ

٣ – لأن أمه أسماء هي بنت أبي بكر الصدّيق.

٤ – هذا الترتيب في خروج كل واحد من هؤلاء الأربعة الكرام وترحيب معاوية به على هذا النحو وأمره بدابة تحمله يجعلنا كأننا أمام ترتيب من صنع الخيال، يخرجون واحداً واحداً وهم المطلوبون دون غيرهم. فمن أين خرجوا؟ ولماذا على هذا النحو؟ لذا يحق للأستاذ الخطيب أن يشكك في هذه الرواية.

٥ – يعني أجمل ترحيب وإكرام.

أثقالُه وقُرُبَ مَسيرُه إلى الشامِ وأُنيخَتْ رَواحِلُه، فأَقْبَلَ بعضُ القومِ على بعضٍ فقالُوا: أيُّها القومُ لا تُخدَعُوا! إنَّه واللهِ ما صَنَعَ هذا لحُبِّكم ولا لكَرامتِكم ولا صَنَعَه إلا لِمَا يريدُ، فأَعِدُّوا له جَواباً. وأَقْبَلُوا على الحُسَيْن فقالوا: أنتَ يا أبا عبدِ اللهِ[1]. قال: وفيكُم شيخُ قريشٍ وسيِّدُها وهو أحقُّ بالكلامِ؟ فقالوا: أنتَ يا أبا محمدٍ - لعبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ - فقالَ: لستُ هُناكُم[2] وفيكُم صاحبُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وابنُ سيِّدِ المسلمينَ - يَعْني ابنَ عُمَر - فقالوا لابنِ عُمَرَ: أنتَ! فقالَ: لستُ بصاحِبِكم، ولكنْ وَلُّوا الكلامَ ابنَ الزُّبَيْر يَكْفِكُم. قالوا: أنتَ يابْنَ الزُّبَيْر. قالَ: نعمْ، إنْ أَعْطَيْتُموني عَهْدَكم ومَواثيقَكم ألّا تُخالِفوني كَفَيْتُكم الرَّجُلَ. فقالوا: فلَكَ ذلكَ. فخَرَجَ الآذِنُ فأذِنَ لهم[3]. فدَخَلُوا فتَكَلَّمَ مُعاوِيَةُ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه ثمَّ قالَ: لقدْ عَلِمتُم سِيرَتي فيكُم، وصِلَتي لأَرْحامِكُم، وصَفْحي عنكُم، وحَمْلي لِمَا يكونُ منكُم، ويَزيدُ ابنُ أميرِ المؤمنينَ أخوكُم وابنُ عمِّكم وأحسنُ الناسِ لكُم رَأْياً. وإنما

١- يعني يطلبون من الحسين أن يتكلم أمام معاوية.

٢ - يعني لست أهلاً لهذه المنزلة.

٣ - يعني سمح لهم الحاجب بالدخول على معاوية. وفي نسخة الخطيب (جاء الإذن).

أَرَدْتُ أنْ تُقَدِّموه باسمِ الخلافةِ وتكُونوا أنتم الذين تَنْزِعونَ وتُؤمِّرونَ وتَجْبونَ وتَقْسِمونَ لا يُدْخَلُ عليكُم في شيءٍ مِنْ ذلكَ.

فسَكَتَ القومُ. فقالَ: ألَا تُجِيبوني؟ فسَكَتَ القومُ. فقالَ: ألَا تُجِيبوني؟ فسَكَتُوا: فأقبلَ على ابنِ الزُّبَيْر فقالَ: هاتِ يابْنَ الزُّبَيْر، فإنكَ لَعُمَري صاحبُ خُطْبةِ القومِ، فقالَ: نعمْ يا أميرَ المؤمنينَ أُخَيِّرُكَ بينَ ثَلاثِ خِصالٍ أيَّها أَخَذْتَ فهي لكَ رَغْبَةً: قالَ: للهِ أبوكَ، اعْرِضْهنَّ: قالَ: إنْ شِئْتَ صَنَعْتَ ما صَنَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، وإنْ شِئْتَ صَنَعْتَ ما صَنَعَ أبو بكرٍ فهو خيرُ هذه الأمةِ بعدَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، وإنْ شِئْتَ صَنَعْتَ ما صَنَعَ عُمَرُ فهو خيرُ هذه الأمةِ بعدَ أبي بكْرٍ. قالَ: للهِ أبوكَ، ما صَنَعُوا؟ قالَ: قُبِضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فلمْ يَسْتَخْلِفْ أَحَداً، فارْتَضَى المسلمونَ أبا بكرٍ، فإنْ شِئْتَ أنْ تَدَعَ أمرَ هذه الأمةِ حتّى يَقْضِيَ اللهُ فيه قَضاءه فيَخْتارَ المسلمونَ لأنْفِسِهم. فقالَ: إيهِ ليسَ فيكُمُ اليومَ مثلُ أبي بكرٍ، وإنّي لا آمَنُ عليكُمْ الاخْتِلافَ. قالَ: فاصْنَعْ كما صَنَعَ أبو بكرٍ، عَهِدَ إلى رَجِلٍ مِنْ قاصِيةِ قُرَيشٍ[1] ليس مِنْ

---

١ – ليس من أقربائه.

بَني أبيه فاسْتَخْلَفَه[1]. قالَ: للهِ أبوكَ الثالثةَ؟ قالَ: تَصْنعُ ما صَنَعَ عُمَر، جَعَلَ الأمرَ شُورَى في سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُريشٍ ليس أحدٌ منهم مِنْ وَلَدَ أَبيه. قالَ: عندَكَ غيرُ هذا؟ قالَ: لا. قال: فأنتُم؟ قالوا: ونحنُ أيضاً. قال: أمَّا لا، فإني أَحْببتُ أن أتقدَّمَ إليكُم، إنَّه قدْ أَعْذرَ مَنْ أَنْذَرَ، وإنْ كان يقومُ القائمُ منكُم إليَّ فيُكَذِّبُني على رءوسِ الأَشْهادِ فأَحْتَمِلُ له ذلكَ. وإنّي قائمٌ بمقالةٍ، فإنْ صَدَقتُ فلِي صِدْقي وإنْ كَذَبْتُ فعليَّ كَذِبي. وإنّي أُقْسِمُ باللهِ لكمْ لئنْ رَدَّ عليَّ إنسانٌ منكُم لا تَرْجِعُ إليه كلمتُه حتى يُسْبَقَ إلى رأسِه[2]. ثم دعا بصاحبِ حَرَسِه فقالَ: أَقِمْ على كلِّ رَجُلٍ مِنْ هؤلاءِ رَجُلين مِنْ حَرَسِكَ فإنْ ذَهَبَ رَجُلٌ يَرُدُّ عليَّ كلمةً بصِدْقٍ أو كَذِبٍ فلْيَضْرِباه بسيفِهما[3].

ثم خَرَجَ وخَرَجُوا مَعَه، حتى رَقِيَ المنبرَ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه ثمَّ قالَ: إنَّ هؤلاءِ الرَّهطَ سادةُ المسلمين وخيارُهم، لا نَسْتَبِدُّ بأمرٍ دونَهم، ولا نَقْضي أمراً إلا عن مَشورَتِهم. وإنَّهم ارْتَضَوا وبايَعُوا ليزيدَ ابنِ أميرِ المؤمنينَ مِنْ

---

١ – يعنى عمر عندما استخلفه أبو بكر.

٢ – يعني يُقتل.

٣ – هذا كلام موجود في كتب الأدب مثل الأغاني للأصفهاني والعِقد الفريد ٣٤٨/٤ وليس في الكتب الموثوقة. وقد أورد ابن العربي هذا الكلام المفضوح ليردَّ عليه ويكشف عواره.

بعدِه، فبايِعوا باسمِ اللهِ. فضَرَبوا على يدِه، ثم جَلَسَ على راحِلَتِه وانْصَرَفَ. فلَقِيَهم الناسُ فقالُوا: زَعَمْتُم وزَعَمْتُم، فلمَّا أُرْضِيتُم فَعَلْتم! قالوا: إنَّا واللهِ ما فَعَلْنا. قالوا: فما مَنَعَكم أنْ تَرُدُّوا على الرَّجلِ إذْ كَذَبَ؟ ثمَّ بايَعَ أهلُ المدينةِ والناسُ، ثمَّ خَرَجَ إلى الشامِ[1].

رأي ابن العربي في تولية مُعاوِيَة يزيد

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: لسْنا نُنْكِرُ ولا تَبْلُغُ بنا الجَهالةُ ولا لنا في الحقِّ حَمِيَّةٌ جاهِليَّةٌ ولا نَنْطَوِي على غِلٍّ لأَحَدٍ مِنْ أَصْحابِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، بلْ نقولُ: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}. إلَّا أنَّا نقولُ إنَّ مُعاوِيَة تَرَكَ الأَفْضَلَ في أنْ يَجْعَلَها شُورى، وألّا يَخُصَّ بها أحداً مِنْ قَرابَتِه فكيف ولداً، وأنْ يَقْتدِيَ بما أشارَ به عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ في التَّرْكِ أو الفِعْلِ، فعَدَلَ إلى ولايةِ ابنِه وعَقَدَ له البَيْعةَ وبايَعَه الناسُ،

---

١ – علق الأستاذ محب الدين الخطيب على هذا الخبر بأنه مصنوع في المصنع الذي خرج منه الخبران السابقان المنسوبان إلى وهب بن جرير.

وتَخَلَّفَ عنها مَنْ تَخَلَّفَ، فانْعَقَدَتِ البَيْعةُ شَرْعاً، لأنَّها تَنْعَقِدُ بواحدٍ وقيلَ باثْنَينِ.

فإنْ قيلَ: لمنْ فيه شَروطُ الإمامةِ[1]، قلْنا: ليسَ السِّنُّ مِنْ شُروطِها ولم يَثْبُتْ أنَّه يُقَصِّرُ بيزيدَ عنها.

فإنْ قيلَ: كان منها العدالةُ والعِلْمُ، ولم يكنْ يزيدُ عَدْلاً ولا عالِماً. قلْنا: وبأيِّ شيءٍ نَعْلَمُ عَدَمَ عِلْمِهِ أو عَدَمَ عَدالَتِه؟ ولو كان مَسْلوبَهما لذَكَرَ ذلكَ الثلاثةُ الفُضَلاءُ[2] الذينَ أَشارُوا عليه بألَّا يَفْعَلَ، وإنَّما رَمَوُا إلى الأمرِ بِعَيْبِ التحكُّمِ، وأرادوا أنْ تَكونَ شُورَى.

فإنْ قيلَ كانَ هنالِكَ مَنْ هو أحقُّ منه عَدالةً وعِلماً، منهم مائةٌ وربما ألفٌ. قلْنا: إمامةُ المفْضولِ - كما قدَّمنا - مسألةُ خِلافٍ بينَ العلماءِ، كما ذَكَرَ العلماءُ في موضِعِه.

---

١ – يعني فإن قيل (تنعقد البيعة لمن فيه شروط الإمامة ومنها السن) على تقدير كلام محذوف.

٢ – ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر.

رواية البخاري في مبايعة ابن عُمَر

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وقدْ حَسَمَ البُخاريُّ البابَ، ونَهَجَ جادَّةَ الصَّواب، فرَوَى في صَحيحِه ما يُبْطلُ جميعَ هذا المتَقَدِّمِ[1]، وهو أنَّ مُعاوِيَة خَطَبَ وابنُ عُمَرَ حاضِرٌ في خُطْبَتِه، فيما رَوَى البُخاريُّ عنْ عِكْرمةِ بنِ خالدٍ[2] أنَّ ابنَ عُمَرَ قالَ: دخلتُ على حَفْصةَ[3] ونُوساتُها تَنْطِفُ[4]. قلتُ: قدْ كانَ في الأمرِ ما ترينَ، فلمْ يُجْعَلْ لي مِنَ الأمرِ شيءٌ. فقالت: «الْحَقْ، فإنَّهم يَنْتظرونَكَ وأَخْشى أنْ يكونَ في احتباسِكَ عنهم فُرْقةٌ». فلمْ تَدَعْه حتَى ذَهَبَ. فلمَّا تَفَرَّقَ الناسُ خَطَبَ مُعاوِيَةُ فقالَ: مَنْ كان يُريدُ أنْ يَتَكَلَّمَ في هذا الأمرِ فلْيُطْلِعْ لنا قَرْنَه، فلنَحْنُ أحقُّ به منه ومِنْ أبيه. قال حَبيبُ بنُ مَسْلَمةَ[5] فهلَّا أَجَبْتَه؟ قالَ عبدُ اللهِ: فحَلَلْتُ

---

١ – هنا بدأ ابن العربي في نقد الأخبار الثلاثة الملفَّقة على وهب بن جرير في تمهيد معاوية لولاية يزيد.

٢ – عِكْرِمَة بن خَالِد بن الْعَاصِ بن هِشَام بن الْمُغيرَة الْمَكِّيّ ثِقَة روى له البخاري.

٣ – أخته، أم المؤمنين، زوجة نبينا الكريم ﷺ .

٤ – أي وضفائرها تقطر ماءً، سمّى الضفائر "نوسات" لأنها تنوس، أي تتحرك وتتدلى. وقيل لبعض ملوك حِمْيَر: ذو نُواس لضَفِيرَتَيْن كانتا تَنوسان على عاتِقَيْه. ومن ذلك تسمية الشاعر الشهير أبي نُوَاسٍ.

٥ – حبيب بن مسلمة الفهري القرشي ويقال له قاهر الروم لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم. له صحبة ورواية يسيرة جاهد في خلافة أبي بكر وشهد اليرموك أميرًا وسكن دمشق. كان في غزوة تبوك ابن إحدى عشرة سنة. ولاه معاوية بن أبي سفيان أرمينية فمات بها سنة اثنتين وأربعين وله نكاية قوية في العدو.

حُبْوَتِي[1]، وهَمَمتُ أنْ أقولَ: أَحَقُّ بهذا الأمرِ منكَ مَنْ قاتَلَكَ وأَباكَ على الإسلامِ[2]، فخَشِيتُ أنْ أقولَ كَلِمةً تُفرِّقُ بينَ الجَمْعِ وتَسْفِكُ الدَّمَ ويُحمَلُ عنّي غيرُ ذلكَ[3]، فذَكَرْتُ ما أَعَدَّ اللهُ في الجِنانِ. فقالَ له حَبيبٌ: حُفِظْتَ وعُصِمتَ[4].

ورَوَى البخاريُّ أنَّ أهلَ المدينةِ لَمّا خَلَعُوا يزيدَ بنَ مُعاوِيَةَ جَمَعَ ابنُ عُمَرَ حَشَمَه ووَلَدَه وقالَ: إنّي سَمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «يُنْصَبُ لكلِّ غادِرٍ لواءً يومَ القيامةِ» وإنَّا قدْ بايَعْنا هذا الرجلَ على بَيْعِ اللهِ ورسولِه، وإنّي لا أَعْلمُ غَدْراً أعظمَ مِنْ أنْ نُبايِعَ رَجُلاً على بَيْعِ اللهِ ورسولِه ثم نَنْصِبُ له القِتالَ، وإنّي لا أَعْلَمُ أَحَداً منكم خَلَعَه ولا بايَعَ في هذا الأمرِ إلا كانتِ الفَيْصَلَ بيْني وبينَه[5].

---

١ – الحُبوة: ما يُحْتَبَى به من ثوبٍ وغيره. وحَلَّ عبد الله حُبْوَتَه لِيَتكلَّمَ ويَرُدَّ على مُعَاوِيَةَ رضِي اللهُ عنه.

٢ – قيل: يَقصِد عَلِيَّ بنَ أبي طَالِبٍ والمهاجِرينَ الذين حاربوا قريشاً وأبا سفيان والد معاوية.

٣ – خاف ابنُ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما أنَّه إذا تكلَّم ثَارَتِ الفِتنةُ وتَفرَّقت الجماعةُ، وسُفِكَ الدَّم، وحُمِلَ عنه غيرُ مَا يُريدُه مِن الكلامِ، فذَكَر ثوابَ اللهِ تعالى في الآخِرَة وما أعَدَّه في الجِنانِ، فسَكَت. فهلّا تعلَّمنا ذلك منه.

٤ – فقال حَبِيبُ بنُ مَسْلَمَةَ لابن عمر: حُفِظْتَ وعُصِمْتَ، أي: حَفِظَكَ اللهُ تعالى وحَمَاكَ مِن الفِتنَةِ وإثارَتِها.

٥ – يفهم من كلام ابن عمر وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة والمنع من الخروج عليه ولو جار وأنه لا ينخلع بالفسق. حتى إنه هدد أولاده وحشمه وذلك خوفاً من وقوع الفتنة، وهو ما حدث بعد ذلك عندما بلغ يزيدَ أن أهل المدينة خلعوه فجهّز لهم جيشًا مع مسلم بن عقبة وأمره أن يدعوهم ثلاثًا فإن رجعوا وإلا فيقاتلهم

نصيحة المؤلف بعدم الخوض في أعراض الصحابة

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فانْظُروا مَعْشَرَ المسْلمينَ إلى ما رَوَى البخاريُّ في الصَّحيحِ، وإلى ما سَبَقَ أنْ ذَكَرْنا له في رِوايَةِ بعضِهم أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عُمَر لم يُبايِعْ، وأنَّ مُعاوِيَةَ كَذَبَ وقالَ قدْ بايَعَ وتَقَدَّمَ إلى حَرَسِه بأمرِه بِضَرْبِ عُنِقِه إنْ كذَّبه[1]. وهو قدْ قالَ في رِوايَةِ البُخارِيِّ: «وقدْ بايَعْناهُ على بَيْعِ اللهِ ورَسُولِه»، وما بَيْنَهما مِنَ التَّعارُضِ[2].

ويستبيح المدينة للجيش ثلاثًا ثم يكف عنهم فتوجه إليهم فحاربوه وانهزم أهل المدينة، وأباح مسلمُ بن عقبة المدينة ثلاثًا فقتل جماعة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وقتل من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وجالت الخيل في مسجد رسول الله ﷺ وبايع الباقين كرهًا على أنهم خدم ليزيد.

١ – يقصد المؤلف الأخبار الثلاثة الملفقة على وهب بن جرير في تمهيد معاوية لولاية يزيد.

٢ – قال الأستاذ محب الدين الخطيب: وهذا الخبر المنير الذي يرويه البخاري في صحيحه يفضح الذين زوروا على وهب بن جرير تلك الأخبار المتناقضة بأن ابن عمر وغيره لم يبايعوا ليزيد، وأن معاوية أقام على رءوسهم من يقطعها إذا كذبوه فيما افتراه عليهم من أنهم بايعوا لابنه. فتبين الآن أنه لم يفتر عليهم، وهذا ابن عمر يعلن في أحرج المواقف – أي في ثورة أهل المدينة على يزيد بتحريض ابن الزبير وداعيته ابن مطيع – أن في عنقه ما في أعناقهم بيعة شرعية لإمامهم على بيع الله ورسوله، وأن من أعظم الغدر أن تبايع الأمة إمامها ثم تنصب له القتال. ولم يكتف ابن عمر بذلك في تلك الثورة على يزيد بل روى مسلم في كتاب الإمارة أن ابن عمر جاء إلى ابن مطيع داعية ابن الزبير ومثير هذه الثورة فقال ابن مطيع: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة. فقال ابن عمر: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله يقوله: "من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية". وكان لمحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية مثل هذا الموقف من داعية الثورة ابن مطيع.

وخُذُوا لأَنْفُسِكِم بالأَرْجَحِ في طَلَبِ السَّلامةِ، والخَلاصِ بينَ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ. فلا تَكُونُوا - ولم تُشاهِدُوهم وقدْ عَصَمَكم اللهُ مِنْ فِتْنَتِهم - ممَّنْ دَخَلَ بلِسانِه في دِمائِهم، فيَلِغَ فيها ولوغَ الكلْبِ بَقِيَّةَ الدَّمِ على الأَرْضِ بعدَ رَفْعِ الفَريسَةِ بلَحْمِها، لم يَلْحقِ الكلْبُ منها إلا بَقِيَّةَ دَمٍ سَقَطَ على الأَرْضِ[1].

ورَوَى الثَّبْتُ العَدْلُ عنْ عبدِ الرحمنِ بنِ مَهْدِيٍّ[2]، عنْ سُفيانَ[3] عنْ محمدِ بنِ المنكدِرِ[4] قال: قال ابنُ عُمَرَ حينَ بُويِعَ يزيدُ: «إنْ كان خَيراً رَضِينا، وإنْ كان شَراً صَبَرْنا»[5].

---

١ – ما أبلغَ هذا من تشبيه يجسّد المعنى المطلوب بالتنفير من الخوض في أعراض الصحابة وما وقع بينهم، فلهم ما كسبوا ولنا ما كسبنا ولا نُسأل عن عملهم.

٢ – عبد الرحمن بن مهدي، الإمام الناقد المجود، سيد الحفاظ ولد سنة خمس وثلاثين ومائة وكان حجة قدوة في العلم والعمل. قال الشافعي: لا أعرف له نظيراً في هذا الشأن.

٣ – سفيان بن عيينة إمام ومحدِّث شهير عُرف بالزهد والورع (١٠٧ – ١٩٨) أجمع الناس على صحة حديثه.

٤ – محمد بن المنكدر القرشي التيمي، المدني، ولد سنة بضع وثلاثين من الهجرة. من التابعين، وروى له: البخاري – مسلم – أبو داود– الترمذي – النسائي – محمد بن ماجة.

٥ – رواه ابن أبي الزمنين في أصول السنة، والداني في السنن، وابن أبي شيبة في المصنف.

وثَبَتَ عنْ حُمَيدِ بنِ عبدِ الرحمنِ[1] قالَ: دَخَلْنا على رجلٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حينَ استُخْلِفَ يزيدُ بنُ مُعاوِيَةَ فقالَ: تَقُولونَ إنَّ يَزيدَ بنَ مُعاوِيَةَ ليس بِخَيْرِ أمَّةِ محمدٍ، لا أَفْقهُها فيها فِقْهاً ولا أعظمُها فيها شَرَفاً! وأنا أقولُ ذلكَ، ولكنْ واللهِ لَأَنْ تجتمعَ أمةُ محمدٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ تفترقَ، أرأيتمْ باباً دَخَلَ فيه أمةُ محمدٍ ووَسِعَهم، أكانَ يَعْجِزُ عنْ رجلٍ واحدٍ لو كان دَخَلَ فيه؟ قلْنا: لا. قالَ: أرأيتُم لو أنَّ أمةَ محمدٍ قالَ كلُّ رجلٍ منهم لا أُريقُ دَمَ أخي ولا آخُذُ مالَه، أكانَ هذا يَسَعُهم؟ قلْنا: نعمْ. قالَ: فذلكَ ما أقولُ لكمْ. ثمَّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «لا يأتيكَ مِنَ الحياءِ إلا خيرٌ»[2].

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فهذه الأخبارُ الصِّحاحُ كلُّها تُعطيكَ أنَّ ابنَ عُمَرَ كان مُسلِّماً في أمرِ يزيدَ، وأنه بايَعَ وعَقَدَ له والتَزَمَ ما التَزَمَ الناسُ، ودَخَلَ فيما دَخَلَ فيه المسلمونَ، وحَرَّمَ على نفسِه ومَنْ إليه بعدَ ذلكَ أنْ يَخْرجَ على هذا أو يَنْقُضَه.

---

١ – حميد بن عبد الرحمن الحميري البصري: تابعي ثقة منسوب إلى حمير بن سبأ بن يشحب، كان ابن سيرين يقول: هو أفقه أهل البصرة. وكانت وفاته قريباً من موت سمِّيه حميد بن عبد الرحمن الزهري.

٢ – رواه البخاري ومسلم بألفاظ قريبة.

وظَهَرَ لكَ أنَّ مَنْ قالَ إنَّ مُعاوِيَةَ كَذَبَ في قولَه «بايَعَ ابنُ عُمَرُ» ولم يُبايِعْ، وأنَّ ابنَ عُمَرَ وأصحابَه سُئلُوا فقالُوا «لم نُبايِعْ» فقدْ كَذَبَ. وقدْ صَدَّقَ البُخاريُّ في روايَتِه قولَ مُعاوِيَةَ في المنبرِ «إنَّ ابنَ عُمَرَ قدْ بايَعَ» بإقرارِ ابنِ عُمَرَ بذلكَ وتَسْليمِه له وتَمادِيه عليه.

فأيُّ الفَريقينِ أَحقُّ بالصِّدْقِ إنْ كنتُم تَعْلمونَ؟ الفريقُ الذي فيه البخاريُّ أمِ الذي فيه غيرُه؟ فخُذوا لأنفسِكُم بالأَحْزمِ والأَصَحِّ، أوِ اسْكُتوا عنِ الكُلِّ، واللهُ يَتولى تَوفيقَكُم وحِفْظَكُم.

والصَّاحِبُ الذي كَنَّى عنه حُمَيدُ بنُ عبدِ الرحمنِ هو ابنُ عُمَرَ واللهُ أعلمُ. وإنْ كان غيرَه فقدْ أَجْمَعَ رَجُلانِ عَظيمانِ على هذه المقالةِ، وهي تُعَضِدُ ما أَصَّلْناه لَكُمْ مِنْ أنَّ وِلايةَ المفضولِ نافذةٌ وإنْ كان هنالِكَ مَنْ هو أفضلُ منه إذْ عُقِدَتْ له. ولِمَا في حَلِّها أو طَلَبِ الأَفْضلِ مِنَ استباحةِ ما لا يُباحُ، وتَشْتيتِ الكلمةِ، وتفريقِ أمرِ الأمةِ[1].

---

١ – سار ابن العربي في مسألة استخلاف يزيد على منهجه الذي سار عليه في الكتاب كله من ذكر الأقوال التي ترددت على الألسنة ثم يرد عليها ويبين حقيقتها وهو ما فعله هنا مع الأقوال الثلاثة المنسوبة إلى وهب في حق معاوية وأثبت زيفها برواية البخاري الصحيحة.

زعْمُ أن يزيدَ كان خماراً

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فإنْ قيلَ كان يزيدُ خَمّاراً[1]. قلْنا: لا يَحِلُّ إلا بِشاهِدَيْنِ[2]، فمَنْ شَهِدَ بذلكَ عليه؟ بلْ شَهِدَ العدْلُ بعدالتِه؛ فرَوَى يَحْيى بنُ بكيرٍ[3] عنِ اللَيْثِ بنِ سَعْدٍ[4]، قالَ اللَيْثُ: «تُوُفِّيَ أميرُ المؤمنينَ يزيدُ في تاريخِ كَذا» فسَمَّاه الليثُ «أميرَ المؤمنينَ» بعدَ ذَهابِ مُلْكِهم وانْقِراضِ دَوْلتِهم[5]، ولولا كونُه عندَه كذلكَ ما قالَ إلا «تُوُفِّيَ يزيدُ».

قتْلُ يزيدَ للحسين

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فإنْ قيلَ: ولو لم يكنْ ليزيدَ إلا قَتْلُه للحُسَينِ بنِ عليٍّ؟ قلْنا: يا أَسَفَا على المصائبِ مَرَّةً، ويا أَسَفَا على

---

١ – الخمّار: من يشرب الخمر، وأيضاً من يصنعها ويبيعها. والمقصود هنا المعنى الأول.

٢ – نلاحظ دفاع ابن العربي عن يزيد وأن هذا الدفاع ليس المقصود به يزيد بل معاوية الذي استخلفه من بعده.

٣ – يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومي المصري (١٥٤ هـ – ٢٣١ هـ). أحد العلماء ورواة الحديث عند أهل السنة والجماعة. وكان فقيه القضاء بمصر في زمانه.

٤ – شَيْخُ الإِسْلاَمِ الإِمَامُ الحَافِظُ العَالِمُ أَبُو الحَارِثِ اللَّيْثُ بنُ سَعْدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الفَهْمِيُّ القَلْقَشَنْدَي (٩٤ هـ/٧١٣ م – ١٧٥ هـ/٧٩١ م) فقيه ومحدث وإمام أهل مصر في زمانه، وصاحب أحد المذاهب الإسلامية المندثرة. وُلد في قرية قلقشندة من أسفل أعمال مصر، وأسرته أصلها فارسي من أصبهان.

٥ – بنو أمية.

مُصيبَةِ الحُسَيْن ألفَ مَرَّةٍ. وإنَّ بَوْلَه يَجري على صَدْرِ النبِّي صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ودمُه يراق على البَوغاء[1] ولا يُحْقَنُ، يا لَلَّهِ لِلْمسلِمينَ[2].

وإنَّ أَمْثَلَ ما رُوِيَ فيه أنَّ يَزيدَ كَتَبَ إلى الوليدِ بنِ عُتبةَ[3] يَنْعي له مُعاوِيَةَ ويأمرُه أنْ يَأْخذَ له البَيْعةَ على أهلِ المدينةِ - وقدْ كانتْ تَقَدَّمتْ[4] - فدَعا مَرْوانَ فأخْبَرَه فقالَ له: أَرْسِلْ إلى الحُسَيْنِ بنِ عليٍّ وابنِ الزُّبَيْر، فإنْ بايَعوا وإلا فاضْرِبْ أعناقَهم. قالَ: سُبْحانَ اللهِ! تقتلُ الحُسَيْن بنَ عليٍّ وابنَ الزُّبَيْر؟ قال: هو ما أقولُه لكَ. فأرسَلَ إليهما، فأتاه ابنُ الزُّبَيْر، فنَعَى إليه مُعاوِيَةَ وسَأَلَه البَيْعةَ، فقالَ: ومِثْلِي يُبايِعُ هنا؟ ارْقَ الْمِنبرَ، وأنا أبايِعُ معَ الناسِ عَلانيةً. فوَثَبَ مَرْوانُ وقالَ: اضْرِبْ عُنُقَه؛ فإنَّه صاحِبُ فِتْنةٍ وشَرٍّ. فقالَ ابنُ الزُّبَيْرِ: فإنَّكَ لهنالكَ يابنَ الزَّرْقاءِ؟[5] (واسْتَبّا). فقالَ الوليدُ: اخْرُجا عنّي، وأَرْسَلَ إلى الحُسَيْن ولم يُكَلِمْه بكلمةٍ في شيءٍ، وخَرَجا مِنْ عندِه.

---

١ - الأرض ذات التراب.

٢ - في الطبعات الأخرى (يا لله ويا للمسلمين) والتركيب الصحيح ما أثبتناه في المستغاث به والمستغاث له.

٣ - الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ابن حرب تولى إمارة المدينة المنورة من قبل عمه معاوية. وكان ذا جود وحلم وسؤدد وديانة. وولي الموسم مرات. ولما جاءه نعي معاوية وبيعة يزيد لم يشدد على الحسين وابن الزبير، فلامه مروان، فقال: ما كنت لأقتلهما ولا أقطع رحمهما.

٤ - سبق أن أخذها له معاوية، فلما مات أراد يزيد أن يؤكدها.

٥ - في نهج البلاغة: وما أنت وذاك يا ابن الزرقاء؟ يعني ما شأنك بهذا. والزرقاء اسم كان يعيَّر به مروان.

وجَعَلَ الوليدُ عليهما الرَّصَدَ[1]. فلمَّا دَنا الصُّبْحُ خَرَجا مُسْرِعَينِ[2] إلى مَكَّةَ فالْتَقَيَا بها فقالَ له ابنُ الزُّبَيْرِ: ما يَمْنَعُكَ مِنْ شِيعَتِكَ وشِيعةِ أبيكَ؟ فواللهِ لو أنَّ ليَ مثلَهم لذَهَبْتُ إليْهِم. فهذا ما صَحَّ.

وذَكَرَ المؤرِّخونَ أنَّ كُتُبَ أهلِ الكُوفةِ وَرَدَتْ على الحُسَيْنِ[3]، وأنَّه أَرْسَلَ مُسْلِمَ بنَ عَقيلٍ[4] - ابنَ عمِّه - إليْهِم ليَأْخُذَ عليهم البَيْعَةَ ويَنْظُرَ هو في أَتْباعِه، فنَهاهُ ابنُ عَباسٍ[5] وأَعْلَمَه أنَّهم خَذَلُوا أَباهُ وأَخاهُ. وأَشَارَ عليهِ ابنُ الزُّبَيْرِ بالخُروجِ فخَرَجَ، فلمْ يَبْلِغِ الكُوفةَ إلا ومُسْلِمُ ابنُ عَقيلٍ قدْ قُتِلَ

---

١ – العيون والمخبرين.

٢ – يعني الحسين وعبد الله بن الزبير.

٣ – قالوا له إنهم لا يجتمعون مع أميرهم النعمان بن بشير في جمعة، ويدعون الحسين إليهم حتى إذا أقبل طردوا أميرهم وألحقوه بالشام، ويقولون في بعضها: "أينعت الثمار، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند" فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليرى إن كانوا مستوثقين مجتمعين ليقدم هو عليهم بعد ذلك.

٤ – مسلم بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي ابن عم الحسين بن علي. وقد أرسله إلى أهل الكوفة لأخذ البيعة منهم، وهو أوّل من استشهد من أصحاب الحسين بن علي في الكوفة. وقد عُرف فيما بعد بأنّه سفير الحسين.

٥ – عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، حبر الأمة وترجمان القرآن، وابن عم النبي ﷺ، وأحد المكثرين لرواية الحديث، وكان مستشارًا لعمر بن الخطاب في خلافته على صغر سنة، وكان يُلقبه بـ فتى الكهول، وشهد مع علي بن أبي طالب موقعة الجمل ووقعة صفين، وكان أميرًا على الميسرة، ثم شهد مع علي قتال الخوارج في النهروان، وأرسله عليّ إلى ستة آلاف من الحرورية فحاورهم ابن عباس، فرجع منهم ألفان. وولاه عليٌّ على البصرة.

وأَسْلَمَه مَنْ كان اسْتَدْعاه[1]. ويَكْفيكَ بهذا عِظَةً لمنِ اتَّعَظَ. فتمادَى واسْتَمَرَّ غَضَباً للدِّينِ وقِياماً بالحقِّ. ولكنَّه رَضِيَ اللهُ عنْه لم يَقْبَلْ نَصيحَةَ أَعْلَمِ أهْلِ زمانِه ابنِ عَباسٍ، وعَدَلَ عنْ رأْيِ شَيْخِ الصَّحابةِ ابنِ عُمَرَ، وطَلَبَ الابْتِداءَ في الانْتهاءِ، والاسْتِقامةَ مِنْ أَهْلِ الاعْوجاجِ، ونَضارَةَ الشَّبيبةِ في هَشِيمِ الْمَشْيَخةِ، ليسَ حَوْلَه مِثْلُه، ولا له مِنَ الأنصارِ مَنْ يَرْعى حقَّه، ولا مَنْ يَبْذُلُ نَفْسَه دُونَه، فأَرَدْنا أنْ نُطَهِّرَ الأرْضَ مِنْ خَمْرِ يزيدَ[2] فأَرَقْنا دَمَ الحُسَيْنِ[3]، فجاءتْنا مُصيبةٌ لا يَجْبُرُها سُرورُ الدَّهْرِ[4].

---

١ – استقبل الكوفيون مسلم بن عقيل بكثير من الحفاوة، وتلا ابن عقيل عليهم كتاب الحسين فخنقتهم العبرات وتعالت نداء المناصرة للحسين. وتروي المصادر أن عدد المبايعين في ذلك اليوم كان ١٨ ألفاً. فأرسل مسلم برسالة للحسين يطلب منه القدوم إلى الكوفة. ووصل الخبر ليزيد فعزل واليه على الكوفة وعين مكانه ابن زياد الذي لم يضيع فرصة فبحث عن مسلم وفرق الناس عنه، حتى صار مسلم وحيداً مختبئاً في أحد البيوت، ورأى أحد أنصار الأمويين مسلم في البيت وعرف أوصافه فأسرع لإبلاغ الشرطة بذلك. ولم يمر وقت طويل قبل أن يحاصر منزل ابن عقيل فخرج يقاتل الجنود حتى لم يقدروا عليه على كثرة عددهم، فعرض عليه محمد بن الأشعث الأمان مقابل أن يرمي سلاحه فقبل ابن عقيل ذلك. ودمعت عيناه عند اعتقاله فهوَّن ابن الأشعث عليه فقال له: "إني والله ما لنفسي أبكي، ولا لها من القتل أرثي، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفًا، ولكن أبكي لأهلي المقبلين إليَّ، أبكي لحسين وآل حسين". واقتادوا ابن عقيل إلى قصر الإمارة حيث عبيد الله بن زياد الذي لم يكترث للأمان الذي وعدَ به ابن عقيل فأمر بقتله ورموه من فوق القصر.

٢ – في زعم مثيري الفتنة الذين يشهدون بغير ما علموا.

٣ – فماذا سيقولون لجدِّه إذا سألهم عن ذلك في الآخرة؟

٤ – مصيبة قتل ابن النبي الذي قال فيه: حُسينٌ منِّي وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ مَن أحبَّ حُسينًا.

إخبار النبي ﷺ بهذه الفتن

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وما خَرَجَ إليه أَحَدٌ إلا بتأويلٍ، ولا قاتَلُوه إلا بما سَمِعوا مِنْ جَدِّه الْمُهَيْمِنِ على الرُّسُلِ، الْمُخْبِرِ بفِسادِ الحالِ، المحَذِّرِ عنِ الدُّخولِ في الفِتَنِ. وأقوالُه في ذلك كثيرةٌ: منها ما رَوَى مُسْلِمٌ عنْ زيادِ بنِ عِلاقةَ[1] عنْ عَرْفَجَةَ بنِ شُرَيحٍ[2] قولَه صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ[3]، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَهُمْ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ». فما خَرَجَ النّاسُ إلا بهذا وأمثالِه. ولو أنَّ عَظِيمَها وابنَ عَظِيمِها وشَرِيفَها وابنَ شَرِيفِها الحُسَيْنَ يَسَعُه بَيْتُه أو ضَيْعتُه أو إبِلُه، ولو جاء الخَلْقُ يَطلبونَه ليَقُومَ بالحقِّ - وفي جملتهم ابنُ عباسٍ وابنُ عُمَرَ - لم يلتفتْ إليهم، وحَضَرَه ما أَنْذَرَ به النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وما قالَ في أَخيه[4]، ورَأَى أنَّها قدْ خَرَجَتْ عنْ أَخيه ومعه

---

١ – زياد بن عِلاقة العَطَفَانِيُّ الكوفِيُّ التَّابعيُّ، من الثقات المعمَّرين، يقال إنه أدرك ابن مسعود.

٢ – صحابي عاش في البصرة.

٣ – أي: شُرورٌ ومَفَاسِدُ مُتتابِعَةٌ خارِجةٌ عن السُّنةِ والجماعةِ.

٤ – قال في الحسن: ابني هذا سيِّد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

جُيوشُ الأرضِ وكبارُ الخَلْقِ يَطْلُبونَه، فكيفَ تَرْجِعُ إليه بأَوْباشِ الكُوفةِ وكِبارُ الصَّحابةِ يَنْهَوْنَه ويَنْأَوْن عنه؟[1]

وما أدري في هذا إلا التسليمَ لقضاءِ الله والحزنَ على ابنِ بنتِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بقيةَ الدَّهر. ولولا معرفةُ أشياخ وأعيانِ الأمَّة بأنه أمرٌ صَرَفَه اللهُ عن أهلِ البيتِ وحالٌ مِن الفتنةِ لا ينبغي لأحدٍ أن يدخلَها ما أسلموه أبداً.

ما ورد في منزلة يزيد

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وهذا أحمدُ بنُ حنبلٍ - على تقشُّفه وعظيمِ منزلتِه في الدِّين وورعِه - قد أدخلَ عن يزيدَ بنِ مُعاوِيَةَ في كتابِ الزُّهد أنه كان يقول في خُطْبتِه: «أَيُّكُمْ مَا مَرِضَ مَرَضًا أُشْفِي مِنْهُ، فَلْيَنْظُرْ أَيَّ عَمَلٍ كَانَ أَغْبَطَ عِنْدَهُ فَلْيَلْزَمْهُ، وَأَيَّ عَمَلِهِ كَانَ أَكْرَهَ عِنْدَهُ فَلْيَذَرْهُ». وهذا يدل على عظيمِ منزلتِه عندَه حتى يدخلَه في جُملة الزُّهاد مِن

---

١ – عبارة القاضي ابن العربي غير مكتملة، فهي مبنية على فعل الشرط الذي لم يذكر جوابه. ولو رحنا نقدر جواباً لهذا الشرط فلن نجد أمامنا إلا أن نقول: لو أدرك الحسين كل ذلك لما وقع له ما وقع.

الصحابة والتابعين الذين يُقتدى بقولهم ويُرعوى مِن وعظِهم. ونعم، ما أدخلَه إلا في جُملة الصحابة، قبل أن يَخرُج إلى ذِكر التابعين.

فأين هذا مِن ذِكرِ المؤرخين له في الخمر وأنواعِ الفجور، ألا تستحيون؟ وإذا سَلَبَهم اللهُ المروءةَ والحياءَ، ألا ترعوون أنتم وتزدجرون وتقتدون بالأحبار والرُّهبان مِن فضلاء الأمة، وترفُضون الْمُلحِدة والْمُجَّان مِن المنتمين إلى الملة {هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وانظروا إلى ابنِ الزُّبَيْر بعد ذلك وما دخل فيه من البيعة له بمكةَ، والأرضُ كلُّها عليه. وانظروا إلى ابنِ عباسٍ وعقلِه وإقبالِه على نفسه. وانظروا إلى ابنِ عُمَرَ وسِنِّه وتسليمِه للدنيا ونبذِه لها. ولو كان للقيام وجهٌ لكان أولى بذلك ابنُ عباس، فإنَّ وَلَدَيْ أخيه عبيدِ الله قد ذُكِرَ أنهما قُتِلا ظُلمًا[1]. ولكن رَأَى بعقلِه أن دمَ عثمانَ لم يُخلَص إليه، فكيف بدمِ وَلَدَيْ عُبيد الله؟ وإنَّ الأمرَ راهقٌ قد خَرَجَا عنه حِفظًا للأصل، وهو اجتماعُ

١ – عَبْد الرَّحْمَنِ، وَقُثَم وَلَدَا عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وكان أبوهما أميراً بِالْيَمَنِ، قيل: بَعَثَ مُعَاوِيَةُ بُسْرَ بْنَ أَبِي أَرْطَأَةَ إِلَى الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ يَقْتُلُ مَنْ كَانَ فِي طَاعَةِ عَلِيٍّ، فَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ شَهْرًا لا يُقَالُ لَهُ: هَذَا مِمَّنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ، إلا قَتَلَهُ وَكَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ عَلَى الْيَمَنِ، فَمَضَى بُسْرٌ إِلَيْهَا فَقَتَلَ وَلَدَيْ عُبَيْدِ اللَّهِ.

أمرِ الأمةِ وحقنُ دمائها وائتلافُ كلمتِها. ودَعِ الأمرَ يتولَّاه أَسْوَدُ مُجدَّع[1] حسبما أمرَ به صاحبُ الشَّرع صلواتُ الله عليه وسلامُه. وكلٌّ منهم عظيمُ القَدر مجتهِد، وفيما دخلَ فيه مصيبٌ مأجور، ولله فيه حُكمٌ قد أنفَذَه، وحكمٌ في الآخرة قد أحكَمَه وفرغَ منه. فاقدُروا هذه الأمةَ مقاديرَها، وانظروا بما قابلها ابنُ عباس وابنُ عُمَر فقابِلوها، ولا تكونوا مِن السَّفهاء الذين يُرسِلون ألسنتَهم وأقلامَهم بما لا فائدةَ لهم فيه، ولا يُغني مِن الله ولا مِن دُنياهم شيئًا عنهم.

وانظروا إلى الأئمةِ الخيارِ وفقهاءِ الأمصار، هل أقبَلُوا على هذه الخُرافات وتكلَّموا في مثلِ هذه الحَماقات؟ بل عَلِموا أنها عَصَبيَّاتٌ جاهلية وحَميَّةٌ باطلة لا تُفيد إلا قطعَ الحبلِ بين الخَلقِ وتشتيتِ الشَّملِ واختلافِ الأهواء - وقد كان ما كان، وقال الأخباريُّون ما قالوا، فإما سكوتٌ وإما اقتداءٌ بأهلِ العِلم وطرحٌ لسخافاتِ المؤرِّخين والأُدباء. واللهُ يُكمِل علينا وعليكم النَّعماء برحمتِه.

---

١ - إشارة إلى ما رواه مسلم: (إنْ أُمِّرَ عليكم عبدٌ مُجَدَّعٌ أسودُ يَقودُكُمْ بكتابِ اللهِ فاسْمَعُوا لهُ و أطِيعُوا).

نُكتة

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وعَجَباً لاستكبارِ الناسِ ولايةَ بَني أميَّة وأولُ مَن عَقَدَ لهم الولايةَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فإنه ولَّى يومَ الفتحِ عَتَّابَ بنَ أُسَيدِ بنِ أبي العِيصِ بنِ أميَّة[1] مكَّةَ - حَرَمَ اللهِ وخَيرَ بلادِه - وهو فَتِيُّ السِّن قد أبقلَ أو لم يُبقِل. واستَكتَبَ مُعاوِيَةَ بنَ أبي سفيانَ أميناً على وَحْيِه، ثم ولَّى أبو بكرٍ يزيدَ بنَ أبي سفيان - أخاه - الشامَ. وما زالوا بعد ذلك يتوقلون[2] في سلَّم المجد ويترقَّون في دَرَجِ العِزّ، حتى أنهتهم الأيامُ إلى منازل الكرام.

وقد رَوَى الناسُ أحاديثَ فيهمْ لا أصلَ لها، منها حديثُ رؤيةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بَني أميةَ يَنزون على مِنبرِه كالقِردة، فعَزَّ عليه[3]، فأُعطِي ليلةَ القَدْر خيراً مِن ألفِ شَهر يَملكُها بنو أُميَّة. ولو كان هذا صحيحاً ما

---

١ - ولَّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكةَ وهو ابن ثماني عشرة سنة.

٢ - يصعدون.

٣ - ونصه: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَى فِي الْمَنَامِ، كَأَنَّ بَنِي الْحَكَمِ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِهِ، فَأَصْبَحَ كالمتغيظ، وَقَالَ: "مَا لِي رَأَيْتُ بَنِيَ الْحَكَمِ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِي نَزْوَ الْقِرَدَةِ" فَمَا رُئِيَ ضَاحِكًا بعد ذلك حتى مات.

استفتَحَ الحالَ بولايتهم، ولا مكَّنَ لهم في الأرض بأفضلِ بقاعِها وهي مكة. وهذا أصلٌ يجبُ أن تُشَدَّ عليه اليدُ.

استلحاق مُعاوِيَةَ زياداً

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: فإن قيل: أحدثَ مُعاوِيَةُ في الإسلامِ الحُكْمَ بالباطلِ والقضاءَ بما لا يَحل مِن استلحاقِ زيادٍ[1]. قلنا قد بيَّنا في غيرِ موضعٍ أنَّ استلحاقَ زيادٍ[2] إنما كان لأشياءَ صحيحةٍ، وعملٍ مستقيمٍ نُبيِّنُه[3] بعد ذِكرِ أَمْثَلِ ما ادَّعى فيه المدَّعون مِن الانحرافِ عن الاستقامة، إذ لا سبيلَ إلى تحصيلِ باطلِهم، لأنَّ خرقَ الباطلِ لا يُرقَع ولسانُه أعظمُ منه فكيف به لا يَقطَع.

---

١ – استلحق فلانٌ فلاناً: وصل نسبَه به وجعله يلحقه في نسبه.

٢ – زِيادُ بنُ أَبِيهِ (١– ٥٣ هـ): قائد عسكري عربي مسلم، من دُهاة العرب وأعلام عهد الخلافة الراشدة، وسياسي أموي شهير. لم يُعرَف اسم أبيه ونسبه، فقيل إنه زياد بن عُبَيد الثَّقَفي، وقيل إنه ابنُ أبي سُفيان بعد أن استلحقَه معاويةُ بن أبي سفيان بنسب أبيه. أسهم زيادٌ في تثبيت الدولة الأموية.

٣ – نلاحظ أيضاً أن كلام المؤلف عن زياد ليس المقصود به زياد بل هو في سياق رد الافتراءات عن معاوية رضي الله عنه.

قالوا: كان زيادٌ يَنتسِبُ إلى عُبَيْدٍ الثَّقَفيِّ مِن سُميَّةَ جاريةِ الحارثِ ابنِ كلدةَ، واشتَرَى زيادٌ عُبَيداً - أباه - بألفِ درهمٍ فأعتَقَه.

قال أبو عثمانَ النَّهديُّ[1]: فكنا نَغبِطُه. واستَعمَلَه عُمَرُ على بعضِ صدقاتِ البَصرة، وقيل بل كَتَبَ لأبي موسى، فلما لم يَقطعِ الشهادةَ مع الشُّهود على المُغيرةِ[2] جَلَدَهم وعَزَلَه وقال له: ما عزلْتُكَ لخِزْيَة[3]، ولكني كرِهتُ أن أحملَ على الناس فضلِ عقلِك. ورَوَوا أن عُمَرَ أرسلَه إلى اليَمَن في إصلاحِ فَساد، فرَجَعَ وخَطَبَ خُطبةً لم يُسمَعْ مثلُها، فقال عُمَرُو بنُ العاص: «أمَا والله لو كان هذا الغلامُ قرشيًّا لساق الناسَ بعصاه»، فقال أبو سفيان: والله إني لأعرفُ الذي وضَعَه في رَحِمِ أمِّه، فقال له عليٌّ: ومَن؟ قال: أنَا. قال: مهلًا يا أبا سفيان. فقال أبو سفيان أبياتًا مِن الشِّعر:

---

١ - أبو عثمان النهدي: تابعي بصري، وأحد رواة الحديث النبوي.

٢ - المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي (٢٣ ق هـ - ٥٠ هـ): من كبار الصحابة، ولد في ثقيف بالطائف، وبها نشأ، وكان كثير الأسفار، أسلم عام الخندق، وتوفي عام ٥٠ هـ في الكوفة وعمره سبعون سنة. وقصة اتهامه بالزنا لم تثبت وقد أبطلها عمر رضي الله عنه. وكان زيادٌ أحدَ الشهود عَلَى المغيرة بْن شعبة مع أخويه أَبِي بكرة، ونافع، وشبل بْن معبد فشهد الثلاثة، ولم يقطع زيادٌ بالشهادة، فحدَّهم عمر، ولم يحدَّه، وعزلَه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبرِ الناسَ أنك لم تعزلني لخزيَّة. فقال: ما عزلتُك لخزيَّة، ولكن كرهتُ أن أحملَ عَلَى الناس فضلَ عقلِك.

٣ - الخِزْية: الخَصلة يُستحيا منها.

أما والله لولا خوفُ شخصٍ يراني يا عليُّ مِن الأعادي
لأظهرَ أمرَه صخرُ بنُ حربٍ ولم تكنِ المقالةُ عن زيادِ
وقد طالت مخاتَلتي ثَقيفاً وتَركي فيهمُ ثَمَرَ الفؤادِ[1]

فذلك الذي حَمَلَ مُعاوِيَةَ[2]، واستعمَلَه عليٌّ على فارسَ، وحَمَى وجَبَى وفَتَحَ وأصلَحَ. وكاتَبَه مُعاوِيَةُ يَرومُ إفسادَه[3]، فوجَّه زيادٌ بكتابِه إلى عليٍّ بشِعْرٍ، فكتبَ إليه عليٌّ: «إني ولَّيتُكَ ما ولَّيتُك وأنتَ أهلٌ لذلك عندي، ولن يُدركَ ما تريدُ بما أنتَ فيه إلا بالصبر واليقين. وإنما كانت مِن أبي سفيانَ فلتةٌ زَمَنَ عُمَرَ، لا تستحقُّ بها نَسباً ولا مِيراثاً. وإنَّ مُعاوِيَةَ يأتي المؤمنَ مِن بين يَديه ومِن خَلفه». فلمَّا قرأَ زيادٌ الكتابَ قال: «شَهِدَ لي أبو حَسَنٍ وربِّ الكعبة». فذلكَ الذي جَرَّأَ زيادًا ومُعاوِيَةَ بما صَنَعَا، ثم ادَّعاه مُعاوِيَةُ سَنةَ أربعٍ وأربعينَ، وزوَّجَ مُعاوِيَةُ ابنتَه مِن ابنِه محمدٍ. وبلغَ الخبرُ أبا بَكرةَ[4]

١- يورد ابن العربي الأخبار عن زياد ثم يعلق عليها كعادته.

٢- أي حمله على استلحاق زياد وسماه زياد بن أبي سفيان.

٣ - يعني يأخذه في صفه ضد عليّ. يورد ابن العربي الأخبار عن زياد ثم يعلق عليها كعادته.

٤ - أبو بكرة الثقفي نُفيع بن الحارث بن كلدة (ت ٥١ هـ) أقام بالبصرة، صحابي كان مولى لثقيف في الطائف، سمَّى نفسه بعد اعتناقه الإسلام بعتيق النبي. أول من نزل إلى النبي ﷺ من الطائف عند حصاره له، فكنَّاه أبا بكرة؛ لأنه تدلى بواسطة بَكَرَة مِن أسوار الطائف لما حاصرها النبي فانضم إليه، له مائة واثنان وثلاثون حديثًا، من علماء الصحابة. اعتزل ولم يشارك في الحروب الداخلية بين المسلمين (الجمل وصفين).

- أخاه لأمِّه - فآلَى يَمينًا ألا يُكلِّمَه أبدًا، وقال: «هذا زَنَّى أمَّه[1]، وانتَفَى مِن أبيه. واللهِ ما رأتْ سُميَّةُ أبا سفيانٍ قَطُّ، وكيف يَفعَلُ بأمِّ حَبيبَةَ: أيَرَاها فيهتِكَ حُرمةَ رسولِ الله، وإنَّ حَجَبَتْه فَضَحَتْه». فقال زيادٌ: جَزَى اللهُ أبا بَكرَةَ خيراً، فإنَّه لم يَدَعِ النصيحةَ في حال. وتَكَلَّمَ فيه الشعراءُ، ورَوَوا عن سعيدِ بنِ المُسَيِّب أنه قال: أولُ قضاءٍ كان في الإسلامِ بالباطلِ استلحاقُ زيادٍ .

قال القاضي أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه: قد بَيَّنا في غيرِ موضعٍ هذا الخبرَ، وتكلَّمنا عليه بما يُغني عن إعادتِه، ولكنْ لا بدَّ في هذه الحالة مِن بيانِ المقصودِ منه فنقولُ: كلُّ ما ذَكَرتُم لا نَنفيه ولا نُثبتُه لأنَه لا يُحتاجُ إليه. والذي نَدْرِيه حقًّا ونقطَعُ عليه أن زيادًا مِن الصحابةِ بالْمَولِد والرُّؤية، لا بالتفقُّه والمعرفة. وأمَّا أبوه فمَا علِمْنا له أبًا قبلَ دَعوى مُعاوِيَةَ على التحقيق[2]، وإنما هي أقوالٌ غائرة مِن المؤرِّخين. وأمَّا شِراؤه لهُ[3] فمُراعاةً

---

١ – أي كان سبباً في اتهامها بالزنى.

٢– فقد كان يسمى زياد بن أبيه.

٣ – تقدم أن زياداً اشترى أباه بالحضانة وأعتقه.

للحضانةِ؛ فإنَّه حَضَنَه عندَ أمِّه إذ دَخَلَ عليه فيه شبهةٌ بالحَضانة إليه إنْ كان ذلك.

وأمَّا قولُهم إنَّ أبا عثمانَ النَّهديَّ غَبَطَه بذلك، فهو بعيدٌ على أبي عثمانَ[1]، فإنَّه ليس في أن يَبتاعَ أحدٌ حاضِنَه أو أباه فيعتقَه مِن الْمَزِيَّة بحيثُ يَغبِطُه أبو عثمانَ وأمثالُه، لأنَّ هذه مرتبةٌ يُدركُها الغنيُّ والفقيرُ والشريفُ والوضيعُ، ولو بَذَلَ مِن المالِ ما يعظُمُ قَدرُه، فيدرأُ به قدرَ مُروءته في إهانةِ الكثيرِ العظيمِ، في صِلةِ الوليّ الحَميم، وإنما ساقوا هذه الحكاية ليجعلوا له أبًا، ويكونَ بمنزلة مَن انتَفَى مِن أبيه[2].

وأمَّا استعمالُ عُمَرَ له فصحيحٌ، وناهيكَ تَزكيةً وشَرفاً ودِيناً.

وأمَّا قولُهم إن عُمَرَ عَزَلَه لأنَّه لم يَشهدْ بباطلٍ، بل رُوِيَ أنه لمَّا شَهِدَ أصحابُه الثلاثةُ (وعُمَرُ يقول للمُغيرة: ذَهَبَ رُبعُكَ، ذَهَبَ نِصفُكَ، ذَهَبَ

---

١ – يستبعد المؤلف ما نسب إلى أبي عثمان من غبطته زياداً لأنه اشترى أباه بالحضانة.

٢ – أي أن خصوم زياد اختلقوا مسألة شرائه لأبيه بالحضانة كي يتهموه بأنه عاق له لما قَبِلَ باستلحاق معاوية إياه.

ثلاثةُ أرباعِكَ، فلمَّا جاء زيادٌ قال له: إني أراكَ صَبيحَ الوَجه، وإني لأرجو ألَّا يَفضحَ اللهُ على يَديكَ رَجلًا مِن أصحابِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ.

وأمَّا خُطبتُه التي ذَكَروا أنه عَجِبَ منها عَمْرٌو، فما كان عندَه فضلُ عِلمٍ ولا فَصاحةٍ يَفوقُ بها عَمْرًا فمَن فَوقَه أو دُونَه. وقد أدخلَ له الشيخُ المُفتري خُطَبًا ليستْ في الحدِّ المذكور.

أمَّا قولُهم إنَّ أبا سفيانَ اعترفَ به وقال شِعرًا فيه، فلا يَرتابُ ذو تحصيلٍ في أنَّ أبا سفيانَ لو اعترفَ به في حياةِ عُمَرَ لم يُخفِ شيئًا، لأنَّ الحالَ لم تكن تخلُو مِن أحدِ قِسمينِ: إمَّا أن يَرَى عُمَرُ إلاطَتَه به[1]، كما رُويَ عنه في غَيرِه فيُمضِي ذلك، أو يَردَّ ذلك فلا يلزمُ أبا سفيانَ شيءٌ باقترافِ ما كان في الجاهلية، فذكرُهم هذه الحكايةَ المُختَرَعةَ الباردةَ المتهافتةَ الخارجةَ عن حدِّ الدِّين والتَّحصيل لا مَعنَى لها.

وأمَّا تَولِيةَ عَلِيٍّ له فتزكيةٌ.

---

١ – إلصاقه به ونسبه إليه.

وأمَّا بعث مُعاوِيَة إليه ليكونَ معه فصحيحٌ في الجُملة. وأمَّا تفصيلُ ما كَتَبَ مُعاوِيَةُ، أو كَتَبَ زيادٌ به إلى عليٍّ، أو جاوَبَ به على زيادٍ، فهذا كلُّه مصنوعٌ.

وأمَّا قولُ عليٍّ «إنما كانت مِن أبي سفيان فلتةً زَمَنَ عُمَرَ لا تستحقُّ بها نَسَبًا» فلو صَحَّ لكان ذلك شهادةً، كما رُوي عن زيادٍ ولم يكن ذلك بمبطلٍ لما فَعَلَ مُعاوِيَةُ، لأنها مسألةُ اجتهادٍ بين العلماء: فرَأَى عليٌّ شيئًا، ورَأَى مُعاوِيَةُ وغيرُه غيرَه.

وأمَّا نُكتةُ الكلام وهو القولُ في استلحاقِ مُعاوِيَةَ زيادًا وأخذِ الناسِ عليه في ذلك، فأيُّ أخْذٍ عليه فيه إنْ كان سَمِعَ ذلكَ مِن أبيه؟ وأيُّ عارٍ إلى أبي سُفيانَ في أن يُلِيطَ بنفسِه وَلَدَ زِنا كان في الجاهلية؟ فمعلومٌ أن سُميَّةَ لم تكن لأبي سُفيانَ، كما لم تكن وَليدةُ زَمْعةَ لعُتبةَ[1]، لكن كان لعُتبةَ مُنازِعٌ تَعيَّنَ القضاءُ له، ولم يكن لمُعاوِيَةَ مُنازِعٌ في زيادٍ.

---

[1] – روى البخاري ومسلم عن عائشة (أنَّ عَبْدَ بنَ زَمْعَةَ، وسَعْدَ بنَ أبِي وقّاصٍ، اخْتَصَما إلى النبيّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ابْنِ أمَةِ زَمْعَةَ، فقالَ سَعْدٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أوْصانِي أخِي إذا قَدِمْتُ أنْ أنْظُرَ ابْنَ أمَةِ زَمْعَةَ، فأقْبِضَهُ، فإنَّه ابْنِي، وقالَ عبدُ بنُ زَمْعَةَ: أخِي وابنُ أمَةِ أبِي، وُلِدَ علَى فِراشِ أبِي، فَرَأَى النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شَبَهًا بَيِّنًا بعُتْبَةَ، فقالَ: هو لكَ يا عبدُ بنَ زَمْعَةَ، الوَلَدُ لِلْفِراشِ، واحْتَجِبِي منه يا سَوْدَةُ). وسودة هي أم المؤمنين بنتُ زمعة. فقد

اللّٰهُمَّ إنَّ ههنا نُكتةً اختلفَ العلماءُ فيها، وهي أنَّ الأخَ إذا استَلحَقَ أخًا يقول هو ابنُ أبي ولم يكن له منازعٌ بل كان وحدَه، فقال مالِكٌ: يَرِثُ ولا يَثبتُ النَّسبُ. وقال الشافعيُّ - في أحدِ القَولين - يَثبتُ النَّسبُ ويأخذُ المالَ، هذا إذ كان المُقَرُّ به غيرَ معروفِ النَّسب[1].

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أمَّا روايتُهم أنَّ عُمَرَ قال: «كرهتُ أن أحملَ فضلَ عقلِك على النَّاس» فهذه زيادةٌ ليس لها أصلٌ، مِن ناقصِ عَقلٍ. وأيُّ عَقلٍ كان لزيادٍ يزيدُ على الناسِ في أيامِ عُمَرَ، وغلامُ كلِّ واحدٍ

أوصى عُتْبَةَ بنَ أبي وقَّاصٍ إلى أخِيهِ سَعْدِ بنِ أبي وقَّاصٍ أنَّه وقَعَ وعاشَرَ جاريةَ زَمْعَةَ بنِ قيْسٍ، وهو والِدُ سَودةَ زَوجِ النَّبِيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ ابنَها – عبدَ الرَّحمنِ بنَ زَمعةَ – هو ابنُه، فأوصى أخاه سعدًا أن يَضُمَّه إليه ويرعاه، فلمَّا كانَ عامُ فتْحِ مكَّةَ سَنةَ ثَمانٍ مِن الهجرةِ، أَخَذَ سَعدُ بنُ أبي وقَّاص الوَلَدَ، وقال: هو ابنُ أخي عُتبةَ، قدْ عَهِد إليَّ فيه أنْ أَستَلحِقَه به، فقامَ عبدُ بنُ زَمْعَةَ فقالَ: هو أخي، وابنُ وَليدةِ أَبي، ووُلِدَ على فِراشِه، فلمَّا تَخاصَم عبدُ بنُ زَمْعَةَ وسَعْدُ بنُ أبي وقَّاص، وقام سَعْدٌ بما عَهِدَ إليه أخوه عُتْبةُ مِن سِيرةِ الجاهليَّةِ، ولم يَعلَمْ سَعْدٌ بُطلانَ ذلِك في الإسلامِ، ولم يكُنْ حَصَل إلحاقُه في الجاهليَّةِ؛ إمَّا لِعَدَمِ الدَّعوى، وإمَّا لِكَونِ الأُمِّ لَم تَعتَرِفْ به لِعُتبةَ، فتَدافَعا بعْدَ تَخاصُمِهما وتَنازُعِهما في الولَدِ، وذهبا إلى النَّبِيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحَكَيا إلَيه، فقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: الولَدُ لَكَ يا عبْدُ بنَ زَمْعَةَ، فالولَدُ تابِعٌ لصاحِبِ الفِراشِ، زوْجًا أو سيِّدًا، وللزَّانِي الحَجَرُ، وهو كنايةٌ عن الخَيبةِ والخُسرانِ أو الرَّجمِ، وأنَّه لا حَقَّ للزَّانِي في الولَدِ، وأمَرَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زوجَتَه سَودةَ بنتَ زَمعةَ أن تَمتَنِعَ مِن ابنِ زَمعةَ المتنازَعِ فيه، فلا يراها ولا تراه، فأمَرَها به نَدْبًا واحتياطًا؛ لأنَّه في ظاهِرِ الشَّرعِ أخوها؛ لأنَّه أُلْحِقَ بأبيها، لكِن لَمَّا رأى الشَّبَهَ البَيِّنَ بِعُتبةَ بنِ أبي وقَّاص خَشِي أنْ يَكونَ مِن مائِه، فيكونَ أجنبيًّا منها، فأمَرَها بالاحتِجابِ منه؛ احتياطًا.

[1] – توسع ابن العربي رضي الله عنه في بيان المسألة الفقهية في الاستلحاق والنسب وما يترتب على ذلك، توسعاً اكتفينا منه عند هذا القدر. ولينظره في أصل الكتاب من أراد التوسع.

مِن الصحابةِ كان أعقلَ مِن زيادٍ وأعلمَ منه. ولهذا كل من كمل عقله أكثر من الآخر فهو أولى أن يختلط مع الناس. ويقولون كان داهِيَة، وهي كلمةٌ واهِيَة، الدَّهاءُ والأَرَبُ هو المعروف بالمعاني والاستدلال على العواقب بالمبادئ. وكل أحد الصحابة والتابعين فوق زياد. وتلك الروايات التي يروي المؤرخون - من كذبهم - في حيل الحرب والفتك بالناس، كل أحد اليوم يقدر على مثلها وأكثر منها، والحيلة إنما تكون بديعة وتُنْثَى[1] وتُروَى إذا وافقتِ الدِّينَ، وأمَّا كُلُّ حكايةٍ تُخالفُ الدِّينَ فليس في رِوايتِها ولا في رُواتِها خيرٌ ولا عَقل. وكل الناس كما قدمنا - وخذ من ولاية بني أمية خاصة - أعقل من زياد وأفصح منه. فلا تلتفوا إلي ما روي من الأباطيل.

وختامًا قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وبالوقوف على هذه الفصول تحسن نياتكم، وتسلم عن التغير قلوبكم على من سبق.

وقد بينتُ لكم أنَّكم لا تقبلون على أنفسكم في دينار، بل في درهم، إلا عدلًا بريئًا من التهم، سليمًا من الشهوة. فكيف تقبلون في أحوال

---

١ - تُنثى: تُروى. مِن نَثَيتُ الحديثَ إذا رَويتَه.

السلف وما جرى بين الأوائل ممن ليس له مرتبة في الدين، فكيف في العدالة! ورحم الله عُمَر بن عبد العزيز حيث قال وقد تكلموا في الذي جرى بين الصحابة: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

والحمدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ.

انتهت القراءة في الجزء الخاص بالصحابة

من كتاب "العواصم من القواصم"

للقاضي أبي بكر بن العربي رضي الله عنه

المحتويات

تمهيد ٤
بداية القراءة ١٣
الصحابة بعد موت النبيّ ﷺ ١٣
يوم السَّقيفة..... ١٦
انقياد الأنصار لأبي بكر ١٧
إنفاذُ جيش أسامة ١٨
صلابة أبي بكر مع مانعي الزكاة ١٨
ميراثُ النبي ١٩
استخلافُ عُمَر..... ٢٠
فضائل عثمان..... ٢٢
خروج أهل الأهواء على عثمان ٢٤
افتراءات الخونة على عثمان ٢٧
الرد على هذه الافتراءات ٣٠
اجتماعُ ذوي الأحقاد ٤٩
دعوة عثمان للصحابة بالانصراف..... ٥٨
جريمة مقتل عثمان ٥٩
براءة الصحابة من التفريط في حق عثمان ٦١
البيعة لعليٍّ رضي الله عنه ٦٤

الافتراء على أصحاب الجَمَل وعليٍّ ٦٧
الرد على هذه الافتراءات ٧٠
الحرب بين عليٍّ ومُعاوِيَة ٧٧
الحق مع عليٍّ ٧٨
أقوال كاذبة عن التحكيم ٨١
بيان حقيقة التحكيم ٨٨
وجوب الأدب مع الصحابة ٩١
مزاعم النَّص على استخلاف عليٍّ ٩٢
تفنيد مزاعم النَّص على استخلاف عليٍّ ٩٥
الأحاديث في فضائل أبي بكر وعُمَر ٩٨
ترتيب أئمة الدِّين ١٠٤
حديث غَدير خُمٍّ ١٠٥
لماذا جعلها عُمَر شورى؟ ١٠٨
بيان موقف ابنِ عَوف ١٠٩
استخلاف عليٍّ ١٠٩
اختصام العباس وعليٍّ عند عُمَرَ ١١١
تفسير (لا نُورَث، ما تركناه صدقة) ١١٥
تنازُل الحَسَن عن الخلافة لمعاوية ١١٦
الجواب عن ذلك ١١٧

فضائل مُعاوِيَة ١٢٠
قصة قَتل مُعاوِيَةَ لحُجْر بن عَدِي ١٢٣
زعمُ أن مُعاوِيَةَ سَمَّ الحَسَن ١٢٥
تمهيد مُعاوِيَة لولاية يزيد ١٢٦
الرواية الثانية المنسوبة لوهب ١٣٠
الرواية الثالثة المنسوبة لوهب ١٣١
رأي ابن العربي في تولية مُعاوِيَة يزيد ١٣٦
رواية البخاري في مبايعة ابن عُمَر ١٣٨
نصيحة المؤلف بعدم الخوض في أعراض الصحابة ١٤٠
زعْمُ أن يزيدَ كان خماراً ١٤٤
قتْلُ يزيدَ للحسين ١٤٤
إخبار النبي ﷺ بهذه الفتن ١٤٨
ما ورد في منزلة يزيد ١٤٩
نُكتة ١٥٢
استلحاق مُعاوِيَةَ زياداً ١٥٣

المراجع

وهي منثورة في الهوامش

من هذا الكتاب

للمراسلة والتواصل:

محمد علي حسين

mali_١١١@hotmail.com

الكويت تليفون ٩٨٨٦٦٩٠٣

مصر تليفون ٠١٠٩٩٦٩٤١٤٠

تعريف

- محمد علي حسين (أبو زهرة)

- لُغوي وباحث في التراث الإسلامي

- موجِّه في مادة اللغة العربية - مواليد نبروه – مصر ١٩٦٢م

- مهتم بنشر التراث في سلسلة صدر منها تسعة وعشرون عملاً، جمعاً ودراسة واختصاراً وتحقيقاً، هي: (غريب الحديث للخطّابي - مختصر كتاب العزلة للخطّابي - هذا نبيُّنا كأننا نراه - دولة بني العباس - دولة بني أمية - الثائران: الحسين وابن الزبير - معاويةُ كِسْرى العرب – خلافة علي بن أبي طالب - خلافة ذي النورين عثمان بن عفان - خلافة الصِّدِّيق والفاروق - محمد رسول رب العالمين - - عليٌّ ومعاويةُ يومَ صِفِّين - الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر - التعازي والمراثي للمبرِّد - محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني - الداء والدواء لابن القيم - أخبار

الحمقى والمغفَّلين لابن الجوزي - النساء لابن قتيبة - بهجة المجالس لابن عبد البر - تهذيب تاريخ ابن خياط - مختصر زاد المعاد – قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد – العواصم من القواصم لابن العربي – حقوق آل البيت في مفهوم ابن تيمية – الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي – مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: "علماء معاصرون نصروا الإسلام"، وكتاب "غرباء".

وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور، وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).